(رواية)

جرعة حب زائدة

(رواية)

جرعة حب زائدة

د. عمار عبد الغني

الإخراج الداخلي : إسلام الحماقي
تصميم الغلاف : زينب محمد
مراجعةلغوية: محمد سلامة
مدير النشر: أحمد خطاب
رقم الإيداع: 23020 - 2017
الترقيم الدولى: 978-977-6598-20-1
الطبعة الأولى: 2017
إشراف عام : أحمد عبد الجواد

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

01007677910 - 01111883712
3aberorg@gmail.com
www.3aber.org
عابر 3aber

جميع الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

(رواية)

جرعة حب زائدة

د. عمار عبد الغني

إهداء

إلى من يهمها الأمر

إلى من حبها فقط

يصنع ثورة

نستولوجيا
مرام

زم حنجرتك بيديك، واضغط على رقبتك بقوة حتى تشرف أنفاسك على الانتهاء، وابق على هذا طويلًا حتى تشعر أن رأسك على وشك الانفجار، حينها ستعرف أني في هذا العالم الأسمنتي لا أحتاج سوى الهواء لا سيما حين تأتي اللحظة التي يتعانق فيها العقربان وتدق الساعة معلنة منتصف الويل.

احتفل الحاضرون بموت عام مضى وولادة عام آت، وسط أجواء من الفرح والبهجة وتبادل التهاني والأمنيات السعيدة، ولكني كنت أشعر بحالة تفوق العدم، ولا أتذكر أني على قيد الحياة إلا حين تشح «رئتي» بالهواء وآخذ شهقة من دواء الربو.

ليت لي ذاكرة الماء فاعيش بلا ماضٍ، وليت لي قوة العواصف كي أعصف بالذكريات، ليت لي قلبًا يحتمل المداهنة والتجمّل فأضحك مع الناس وأصفق معهم، ولكن

كيف؟ وأنا لا أشعر بالأمان، وأي امرأة لا تشعر بالأمان لن تستطيع أن تعيش امراةً أبداً.

كل شيء حين يسقط له صوت إلا الحزن يسقطُ في داخلي مرارًا دون صوت، يحاول الجميع عبثًا أن يطلقوا في قلبي طاقة الفرح، لعلي أشعر بالدفء، وتسري في عروقي البهجة، ولكن هيهات هيهات، فقد اعتدت الحزن كأنني الحزن وأضحت روحي كغربال منخور بألف ثقب وثقب.

كل عام يمر وأنا لا أراها، أرفو وحدتي بخيوط من سراب، يقتلني الشوق لأشياء كثيرة، يدي ابنتي الناعمتين، الصغيرتين، أولى خطواتها وآخر خطواتي.

كل عام يمر وأنا لا أراها أتمنى أن يُقطف من عمري عامٌ، ويُوضع في سلة عمرها، ولا يقبل عقلي البتة فكرة أنها تنساني أو ترفض أن تراني أو تصدق لحظةً أني تخليت عنها ورميت بها إلى المجهول، فلدي أمل موصول بمحبة قديمة وعلاقة وطيدة، ورهان على بطن حملتها تسعة أشهر، وصدر أرضعها الحب، وجسد تحمل قبل ذلك آلام الطلق وجرّب الموت قبل الموت.

لاشيء في يدي
ومجهول جداً غدي
ماعدت أملك ما يفرح
حتى عصفوري الذي أطعمه كل صباح
تعلم النواح.. وأعار حنجرته للخوف
ولم ينشد

ذات يوم سمعت باب غرفتي يطرق طرقًا وئيدًا، ظننته "مهند"، يفتح الباب الموارب شيئًا فشيئًا، وفتحت إحدى عينيَّ التي أضناها الأرق ولم تذق منذ أيام طعم الوسن، وإذا بي أرى "رهف" تدخل الغرفة بخطوات ناعمة، وهي تبتسم، لم يتغير شكلها كثيرًا غير أنها الآن غيداء طويلة، تتفجر منها الحياة.

لم أصدق كم أصبحت جميلة، فعيناها الزرقاوتان بحر لا ساحل له، ورمشاها الناعسان عنوان من لا عنوان له، ابنتي.. حبيبتي، هل أنا في الحياة أم في لجاجة الموت، كي أرى ما أشتهي؟ أم غزل لي الحظ أخيرًا أحلامًا وردية؟

احتضنتها بقوة حتى كادت تختلط أضلاعها، أردت الصراخ في تلك اللحظة لكنني لم أستطع وعزَّ عليَّ البكاء، وتسيد الذهول الموقف حتى سمعت صوتًا يقطع صوتي وأنا أقول: رهف.. رهف بوتيرة متصاعدة، صوت يخرق حلمي ويمزقه، صوت رجولي أجش بارد، نزعت منه حرارة الألوان فلا ينتمي سوى للأبيض.

قال: خذي نفسًا عميقًا، وازفريه بهدوء.

فتحت عيني وكأنها خيطت بسلك من حديد، وأنفاسي تأبى أن تستقر، حزينة لأنها عادت من حلم تماهت به بلا حدود، فأدركت بعد حين أني في عيادة الدكتور عبد الكريم الدباغ، الطبيب النفسي الشهير.

قال د. عبدالكريم: ها.. بما تشعرين؟

قلت: أشعر أني في حرب ضروس أقاتل فيها بضراوة، وفجأة أحسست بالذوبان، وكأن كل الأسهم تخترقني دفعة واحدة.

تأملني ثم نظر إلى ورقة صغيرة يكتب فيها ويقول: حسنًا.. حسنًا.. سنكمل في الأسبوع المقبل، وأرجو أن لا

تتأخري عن موعد الجلسات فما زال أمامنا الكثير، نظر اليَّ هذا الرجل الستيني ممتلئ الوجنتين من خلف زجاج نظارة سميكة هابطة إلى أرنبة أنفه، وقد كتب لي أدوية جديدة: تفضلي.. انتظمي في أخذ الدواء وسوف تنامين جيدًا.

كنت قد اشتكيت من حالة أرق مدمرة، فلم أنعم بنوم منذ أسبوع تقريبًا، فكلما وضعت رأسي لأنام عاندتني الوسادة فلا تهش عليَّ النعاس، ولا تصالحني مع النوم لأنام، لعلها لم تحتمل رأسي المحشو بالأفكار، ولا جسدي المدجج بالهموم.

قتل الله الأرق، وقبله الفراق، لم أعرف أن له أظافر قاسية إذا حكت أُدمت، وأصبح الليل صديقي الوفي أقضيه أستجدي رهفًا، في دعاء وصلاة، أشتهي الموت غير أني أخاف، والخوف من الموت موت أيضًا.

الليل يهجو الصبر ويرفل بالعناء تمضي دقائقه بطيئة، ولم أعرف أن النوم غالٍ لهذه الدرجة ولكنه ككل شيء يصبح باهظًا كلما ازداد الطلب عليه، وأنا ككل ساهرة تحاول دفع فاتورة السهر.

غادرنا عيادة الطبيب وما زلت مشتتة ورؤيتي مضببة، أسمع صوت مهند يحدثني وكأنه يحدثني من بعيد، أشعر بيديه الحانيتين تربت على كتفي، يطمئنني بأني سأكون بخير، وأنا أهز رأسي بالموافقة مع ابتسامة حائرة، ولكن كل شيء بداخلي يقول: رهف.

عدنا إلى بيتنا في الوزيرية وسط مدينة بغداد، بالقرب من معهد الفنون الجميلة، أذكر أني سألت أستاذي أيام كنت طالبة في كلية الآداب عن سبب تسمية الوزيرية بهذا الاسم، فقال إنها تسمية عثمانية تعود نسبتها لوالي بغداد العثماني رشيد باشا الكوزلكي التي تولاها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان يلقب بالوزير.

ذهب مهند لصيدلية قريبة من الشارع المحاذي، بينما دخلت البيت وحدي أستجدي الخُطا، لا أعرف لماذا ولا أريد أن أعرف.

دخلت غرفة النوم ووجدتها بأحلى حلَّة وأجمل زينة، وقد وضع مهند في الركن الملاصق للشرفة شجرة مزركشة بأضواء عيد الميلاد، وفي السقف علَّق شرائط ملونة، وبصدق

متناهٍ، لم أذق طعم الألوان منذ زمن بعيد، أخبرني مهند ذات مرة أني مصابة بعمى الألوان، ضحكت حينها ولم أفهم مغزى كلامه إلا بعد أن أقسم لي الجميع أن غرفتي الفارهة ملونة، وحديقتنا الغنّاء مخضرَّة وليست رمادية كما كنت أراها، ذلك أن الحزن حين يلتهم أحدًا ينخره دون هوادة، يمسح عنه كل ألوان الحياة، ويطفئ فيه كل ومضة.

فوجئت أني على حافة الوقت فانتفضت إلى الثلاجة، وبدأت بتسوية قطع الدجاج مع صوص البيكاتا، فأنا وإن كنت بارعة بالطبخ غير أن اليوم مر بسرعة ولم يسعفني لتحضير وجبة ممتازة لزوجي، فمهند بارع في كتابة القصائد التي تتغزل فيما يأكل بشهية، وأعترف بيني وبينكم أني أشعر حين يطريني ويمدحني بالسنابل تنبت في قاع قلبي، فهو رجل كريم بمعنى الكلمة ولكني امرأة مع وقف التنفيذ.

عاد مهند متعبًا لكنه يخفي تعبه خلف ابتسامة عريضة، انضم إليَّ وأنا أقلب قطع الدجاج التي تنبعث منها رائحة التوابل الهندية، قال: الله.. الله.. دعيني أتذوق، دعيني أسافر في عالمك.

قلت: ها... أين وصلت؟ إلى إيطاليا؟

قال: بل إلى كيرلا

قلت بسرعة: من هذه الفتاة.. أتعشق غيري؟

قال: كيف تقولين أن اختصاصك تاريخ وأنت لا تعرفين كيرلا البلد منشأ الطعوم؟ فيها التوابل بقيمة الذهب.

جلس بقربي على المائدة وقال: أتعرفين ياحبيبتي أنه يوجد أكثر من ٨٠ نوعًا من التوابل تزرع حول العالم من بينها ٥٠ في الهند وحدها.. ولكن ابتسامتك بالنسبة لي هي نكهة الحياة.

قلت: أشكرك ياحبيبي، لكني والله أبحث عنها كي أعطيها لك.. لك وحدك لكنها تائهة مثلي.

قال: ستجدين البوصلة، وستبحرين نحو الفرح قريبًا بإذن الله.

تركت الطعام وقد اغرورقت عيناي بالدموع وقبلت يده واحتضنتها، وأنا أتأمل وجهه الصبور المتهلل بالسماحة، فلطالما تحمل أوجاعي وأخفى أوجاعه خلف ملامح الرضا.

قال: اقتربي والتمسي الدفء واغرسي رأسك في صدري

قلت: كلماتك سبيكة ذهبية، بل ماسة من النوع الفاخر

قال: لأنك الحب الذي ترعرع في ثنايا الروح.

سرحت طويلًا وأنا أمشي على عشب الأسئلة: هل يا ترى إذا رأتني رهف ستحبني مثلما يحبني مهند، أم ستلفظني وتكرهني كما يكره الضرير العمى، هل سأمتلك ساعتها خرائط تمنحني الوصول لقلبها أم ستغلق عليَّ باب خلجانها وتعزُّ عليَّ فرصة الغفران؟

قال مهند: سلمت يداك

قلت سارحة: بالهناء والشفاء ياحبيبي

قال: أين سرحت؟

انتبهت وقلت وأنا أصب له الشاي: في رهف

قال: دعي الأيام تكشف لها كم أنت حنونة، لا تستحقين منها هذا الجفاء

توقفت عند كلمة «أم»، وتذكرت أن بإمكاني أن أكون أمًّا بالفعل مرة أخرى، وأنه بإمكاني تعويض ما فاتني، ومنح مهند طفلًا يلاعبه ويملأ عليه حياته، ولكن من يمتلك الشجاعة ويأخذ القرار وكلانا يخشى على الجنين نتائج الدواء.

الحب فن المستحيل
مهند

حين تنفس الصبح، أمسكت ثوب اليوم من أول أطرافه مصطحبًا والدتي لاستلام بعض الدنانير من دائرة التقاعد عن مشوار طويل قضاه أبي رحمه الله في التعليم، واحتجزنا طابور طويل مزدحم، وفوق رؤوسنا يحوم الحر ويسلقنا بألسنة من لهب.

كنت أستجدي النَّسمات بورقة أهفهف بها أمام وجهي، بينما أقبل رجل من جسر الشهداء يرتدي سروالًا يصل إلى ركبتيه مهترئ الأكمام والأطراف، رجلاه حافيتان لا يختلف لونهما عن لون التُّراب، أمّا قميصه فقد تناثرت رقعه حتَّى خيَّل لي أنَّه يعدُّ بها سنوات عذابه وبؤسه، وجهه مليء بالأخاديد، كأن الزمن حفر فيه بمعول، وشعره كان أشعثًا ولحيته طويلة، وقد أضاف العرق والحرارة والسير الطويل والغبار، قذارة على قذارته.

نظر الناس إلى هذا الرجل في ضرب من القلق، فقد كان من العسير أن تقع العين على إنسان بمظهر أشد بؤسًا منه، كان متوسَّط الطول، بدينًا، في أواخر العمر، قلنسوته الجلدية مائلة إلى الجانب تخفي نصف وجهه الذي لفحته الشمس والريح، ودغلٌ كثيفٌ بادٍ من صدره وقميصه الأصفر البالي الممزق قد فقد أغلب أزراره، سال منه العرق وفي يده كان يحمل عصا هائلة ذات عقد.

هممت أعطيه بعض المال وتقدمت إليه، وقلت له أين أهلك يا حاج؟ هل تريد أن أذهب بك إليهم؟

قال: مات أهلي من سنين، وزوجتي كذلك

قلت: أين أولادك؟

قال: انفرط عقد العمر وتناثرت حبات أيامه ولم أنجب اطفالًا

قفلنا راجعين، وفي رأسي هذا الرجل العجوز، فكأنه نبهني إلى أني أرتحل نحو المشيب، فتحت الراديو وبجانبي والدتي تنظر إلى الأمام بصرامة كأنها ضابط في القوات

المسلحة، يحط على كتفيها النسر الجمهوري، وإذا بفيروز تغني:

سني عن سني.. سني عن سني
عم تغلى ع قلبي يا عهد الولدني
ياحلو يا حبيبي ما بيعك بالدني
وكل سنة بحبك أكتر من سني

سلام على أيام الصبا ما أهنأها وما أسعدها، يوم كان القلب نقيًّا والجسم غضًّا طريًّا، والطير يحيينا بشدو الفرح، ويغني الحمام هديل الأمل، كنا نقفز من شارع لشارع، ومن روض لروض، كعصافير تتراقص فوق الأغصان، يبلل ريشها ندى الطل، ويغسل أجنحتها رذاذ المطر.

يا لها من أيام لذيذة مرت كأحلام الربيع وطيف الكرى، أيام كنا صغارًا نلعب (الختيلان) و(الجميدان) و(الدعابل) و(سبع سيفونات) (والمصاريع) وغيرها، ولكن اللعبة الأهم التي ألعبها مع مرام هي (بيت أبو بيوت)، حيث كنا نحاكي حياة المتزوجين، فألعب دور العريس ومرام ابنة

خالتي تلعب دور العروسة، ونعيش في بيت حيطانه من الوسائد، وسقوفه من الأغطية ودميتها البيضاء بمثابة ابنتنا الصغيرة.

لدي أمنيتان في الحياة، تحققت الأولى ولم تتحقق الثانية بعد، فالأولى هي زواجي من مرام والثانية أن أصبح أبًا، لقد كنت أكبر وتكبر مرام مع أحلامي، أستعجل السنوات لأتعثر بحبها، وأسقط فوق قافية وجدها ولا أجد أحدًا يسمي عليَّ.

أذيعت في الراديو أغنية عبد الحليم حافظ "حبك نار"، ونظرت إلى والدتي المحشورة في علبة كبريت تسمى مجازًا سيارة، وهي تجفف جبهتها من الحر، فقلت: من يرشو قرص الشمس ليتزحزح ولو قليلًا عن عنق النهار، فاجأتني أمي قائلة: أراك حزينًا هذه الأيام؟

قلت: هموم الحياة يا أمي، الحرب والحر والخوف وغلاء المعيشة

قالت: يعني لم تذكر زوجتك

قلت: ما بها زوجتي؟

قالت: لم لا تذكر أنها أوقفت حياتك وعزَّت عليك بطفل يفرحك ويفرحني

أحسست أنها غرزت خنجرًا في خاصرتي، فقلت لها: لا تظلميها يا أمي.. تعرفين جيداً أنها مريضة!

قالت بصوت عالٍ: أنا لا أظلم أحدًا يا ولدي، ولكنها الأنانية التي تعتريها هي من جعلتها تزدري أناتك دون أن تبالي بالعمر، فالعمر ثـقب في إبرة الوجود، يمر منها خيط الروح مسرعًا كما يمر الغيم من الماء إلى الماء، والحب الذي يجري في دمك الآن ربما يجف غدًا، وقد يرفعه المد ويحسره الجزر، وقد يتأثر بالفصول الأربعة فيهيجه الصيف ويثبطه الشتاء.

هل قتلت آباءها الأولين حتى ترميك جسدًا بلا روح، بقايا إنسان ممزق، يفتك بك صليل الحرمان، كأنما حلت عليك لعنة الجوى، لقد ذبلت يا ولدي والألم يعتصر أوداجك، فلست ذلك الــ"مهند" الذي أعرف، فقد كانت ضحكتك تصلني من آخر الشارع.

وصلنا إلى البيت بإعجوبة، وسكتت أمي بإعجوبة أيضًا، بعدما لفت حولي القيد وأنا أحاول التملص عنوة، ربما من ترعبه الحقائق وتفزعه أنباء الصدق يجلده سياط الواقع بقسوة.

رن هاتفي وإذا بدكتور وائل صديق طفولتي وصباي، زميلي الذي أصبح وزوجته أصدقاء العائلة، يشكرني على وقفتي البطولية معه في يوم المناقشة، فقد حصل على الدكتوراة في الإخراج منذ أسبوع مضى، وساعة المناقشة انطفأت الكهرباء في القاعة، وبدأ الملل والحر يخيم على الوجوه، الأساتذة والحضور على حد سواء.

كادت الأعصاب تنفلت والأصوات ترتفع، لولا أني استدركت الموقف وجلبت مولدة البيت، وأدرتها واشتغلت الأنوار والمراوح والمبردات في القاعة من جديد، وانتهت المناقشة بنجاح وحصل على درجة الامتياز، ودان لي بالفضل مع العلم بأنني مدين بالفضل له ولزوجته، فقد وقفا وقفة حقيقية معي ومع مرام خاصة بعد أزمة ابنتها "رهف".

كم تمنيت أن أكون أبًا لهذه الفتاة، ولكن لا يغالب القدر أحد إلا غلبه، فقد كنت قاب قوسين أو أدنى من الارتباط بمرام، بيد أن وليد سبقني، فذقت مرارة الطعنة وحريقها، وأجدت الاختباء خلف تقاسيم الألم.

فما أصعب أن تتخيل ولو مجرد خيالٍ، أن تذوب حبيبتك بحضن شخص هو غيرك؟ وتعلم أن صمتها تفكير به؟ وانشغالها وارتباكها كان لإسعاده؟ وما أصعب أن تنتظر السنين تلو السنين لتكون محور حياتك ومحطة استراحتك ثم تراها تغرق في بحر غيرك، تبادله حبًّا هو من حقك.

الحب فن المستحيل، اندفاع الروح للروح، ولا أحد يقامر بما في صدره، لكنني فعلت، كنت أموت واقفًا على قدمين وأرسل روحي إلى برزخها بهدوء، حتى ظفرت بها ولكن بعد أن تصدع وجدانها من جلبة الفقد، صوت الطفولة وهجاء الحروف: بابا.. ماما.

أعيش حياتي بين الملل وبين السهر، ألملم بعضي على بعضي وأهدهد الليل وزائريه، وحين أقرر الهرب فإن أول

مكان أهرول إليه هو عيناها، حيث قارات الراحة وبراح المحبة، أحادثها، وأرتل قصائد الشوق معها، وإن كانت تغيب في عالم آخر، تبحث عن آخر، إلا أني أبحث عنها، وأبحث عني فيها، فقناعتي أن المحب يحب ويعشق من يحب كما يكون، لا كما يريد

في سجن الأحداث
وليد

أنا واحد من هؤلاء العصاة الذين يندفعون للشر ويستطيبون لهيب النار، وتشكو كبد الأرض من وطأتهم فتمرض، أنا كائن لا أعرف ما أريد ولا أدري من أكون ولا يهمني ذلك، تركت دراستي مبكرًا ولم أفلح بعمل، فقد كانت مدرستي الابتدائية نائية عن بيتنا، ولم تكن منطقة البياع معبدة الشوارع كما هي الآن، فقد كانت صحراء قاحلة، والطريق الترابي الممتد لطين بيوتنا ليس فيه شريط للإياب، وهذا يعني أنه لا فكاك من مواجهة الكلاب السائبة في الذهاب وفي المجيء.

طردتني المدرسة وأنا في الرابعة عشر من عمري، بسبب مشاجرة بيني وبين زميل لي، فبعد عراك طويل ضربته بحديدة على رأسه، أصبت إحدى عينيه بعاهة دائمة، فصاح الحزن ملء ضلوعي وعشش على هامة أيامي.

دخلت سجن الأحداث، منكس الرأس، أقرع سن الندم لأقضي فيه أسوء أيام حياتي، أول ما وطأت قدمي أرض السجن أحسست بأني مجرد خيالٍ في عالم افتراضي هو الآخر خيالٌ، أرسف في قيودي وأرقب الغادين والعائدين، وأناجي بطيفي السابح تصاريف القدر.

واجهت في هذا العالم الغامض اعتداءات كثيرة ومحاولات اغتصاب عديدة، ولكن عين الله لم تزل تحرسني وعنايته تحيط بي كل لحظة، وكلما ضاقت النفس ذرعًا أطعم الطيور عبر نافذة الزنزانة، وأجلس أشاهد القمر والنجوم، وأرتمي في أحضان الأمل بحثًا عن خيط الفرج بعيدًا عن هذه الجدران المنسية.

تنبض الحياة داخل السجن في أولى ساعات الصباح، لتخمد في المساء فيخيم عليها صمت القبور، وسرعان ما يتحول هذا الصمت إلى مسرح مليء بالحكايات المأساوية والنادرة.

كان سجنًا يسقى بالأمل حين يأتي النور، لكنه يتعفن بالدم والشتائم والجرائم والرعب وقت الظلام، تتسرب من بين القضبان رائحة البؤس العطنة لتستقر في مساماتنا،

نتقاتل على آخر سينتمر من الهواء، وأسراب الموت تهفهف فوق الرؤوس وتغطي بأجنحتها سماء السجن، كل شيء كان مخيفًا، الوجوه والحيطان والأرواح، الحر قاتل والرطوبة بالغة والجو خانق والعروق متشنجة، ويتغلغل الوجع في عظامنا كالسرطان.

كان سجنًا بمقايس حظيرة الدواب، أمتار معدودة يرزح فيها ثلاثون ثورًا بريًّا، كان سجنًا حانيًا على الفئران والحشرات الليلية الطائرة والزاحفة، وحانيًا على الأقوياء الذين يفجرون الوقائع وتتعالى أصواتهم وتتشابك أياديهم، حتى لا تستطيع تمييز الصالح من الطالح، الظالم من المظلوم، وحتى المظلوم ومن تشعر أنه مختلف عن الذئاب، وتغريك فيه ملامح الود والعطف على سحنته، تظل تشعر تجاهه بالحذر، تجتمع معه برابط ضعيف من الثقة، فربما يتحول فجأة إلى وحش كاسر أو على الأقل نبتة شائكة تخز بمجرد الاقتراب منها.

وخلف أقبية السجن يقبع حراس الظلام، واقفين على رؤوس الأشهاد، يتلصصون على أنفاسك دون ملل أو كلل، متخصصون في بيع وشراء النزلاء، يفرغون غلًا لم أعرف

ما طبيعته، ربما لأنهم بلا حاضر وبلا مستقبل، تمر على أحدهم الأيام والشهور وهو على نفس الحال، حتى يموت أو يشنق نفسه ليخلص مما هو فيه.

لحظة الإفراج مشهدٌ لا يوصف، كنت أترقب أمي من النافذة، ثم أتفحص الساعة، أجلس ثم أقف، أضغط على قبضتي وأعض على أسناني، متسائلًا متى تصل أمي؟ فحين وصلت ورأتني حرًّا فرت دموعها من عينيها واضطربت فرحًا، وقامت برش الشوكلاتة فوق رأسي وتوزيعها على الناس.

اندهشت كيف أصبح جسمي جلدًا على عظم، نحيلًا لا آكل إلا ما يقيم الأود، وفي رأسي آثار إصابات وفي جسدي آثار حروق، وكيف مع الأيام أصبحت عدوانيًّا أعاقر الخمر وأشرب السجائر وألعب القمار.

تدعي أمي أنها في أيام الصبا كانت قطعة من القمر، عيناها تسحر الأعين، وشفتاها الملمومتان تضاهيان بحسنها حبات الكرز، لكني متأكد أن نصف كلامها مبالغة ونصفه الثاني أمنيات.

تزعم أن أبي كان طبيبًا، وقد تزوجت منه في السر، لأن وضعه الاجتماعي لا يسمح له بإشهار الزواج وإظهاره للعلن، فإن زوجته الأولى ابنة لأحد المسؤولين الكبار، لذلك كانت زياراته لنا نادرة، بحيث لا أتذكر ملامحه جيدًا، أما أختي داليا لم يرها أبدا، فقد هجرنا وأمي حامل بها.

لا أدري لماذا تحب الأطفال، وتسطو على أذني بين الفينة والفينة كي أتزوج وأنجب جيشًا من الذكور وكتيبة من الإناث، فتفرح بهم كما يفرح الفلاح بثمر حقله والراعي بقطيعه.

ربما لأنها عاشت سنين قاسية، مجدبة، تملؤها الأشواك والعطش؟ لقد كنا نسمعها كثيرًا ما تدعو على والدي الذي ظلمها وجعلها تواجه الحياة بأقدام حافية، وكنت أناكفها لأنفس عنها فأقول: أين عيادة زوجك أيتها البرنسيسة؟ فتتلفت باحثة عن أي شيء تضربني به.

ترد عليَّ: اللعنة عليك يا ابن الـ.... لو كنت أعرف مكانه لذهبت أطبق عليه السماء ولن أدعه حتى يختلط بتراب الأرض، متى يرينيه الله كسيرًا مذلولًا يلبس الخيش

ويلف الشوارع حافي القدمين مطموس الهامة مدفون الطلعة؟

زرعنا أبي في حقل الصبار لنعتاد وخز الحياة وسقتنا أمي الدمع وهي تنزع عنا كل وخزة حتى صرنا بارين بالشوك والملح، لقد كنت أخفي خلف مشاكساتي هذه وجعًا يطحن أضلعي وكوابيس سجن تطاردني وتحيلني إلى رفات، أغالب الآلام بضمادات الثرثرة ومسكنات السخرية، وأقهقه لأخرس الأنين لا سيما حين أتذكر أن لا نقطة واضحة أنطلق منها ولا نقطة واضحة أسير إليها.

خزائن الروح
مرام

في داخل كل واحد منا خزائن مدفونة في صحراء كبرى اسمها «اللا وعي» وفي كل خزانة أكوام من المشاعر والذكريات الحلوة والمرة، أخبرني الدكتور عبد الكريم أن من يريد التصالح مع الماضي، عليه أن يتقبل هذه الخزائن والرضا بامتلاكها بل ومصاحبتها كصديق لا بد منه، ننصحه لتغيير طبائعه وعاداته السلبية ولكن في النهاية يجب التآلف معه.

مع كل حبة دواء أتذكر هذه الكلمات، وكأنه حفرها في وجداني، صرت أتذكرها مثل تعويذة أتعكز عليها لأتغلب على ضعفي، حاولت تنفيذ التمرين الذي أوصاني به، إلا أنني خائفة، أخاف أن تقفز الذكريات المرهقة إلى صدري ويبتلعني الماضي وأضيع في غياهبه.

اليوم إجازة، والوقت ضحى، اتصلت بأختي الصغرى «مريم» وطلبت منها أن تزورني كي أنفذ التمرين بوجود أحد معي، فمنذ انشغال مهند بفيلمه الوثائقي الجديد لم يعد يأتي للبيت إلا متأخرًا وأحيانًا لوجه الفجر.

بعد أن أعددت قهوتي، وسقيت زرعتي، نثرت بعض الحبوب للعصافير الجائعة في حديقة البيت، ووصلت مريم ورحبت بها وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، ثم طلبت منها أن تساعدني في تنفيذ التمرين، اتسعت عيناها وأومأت برأسها مرحبة.

قالت: ماذا سأفعل بالضبط؟

قلت: سأجلس هنا في حالة استرخاء، وضعي أنت هذه النظارة الشمسية على عينيك كأنك د. عبد الكريم، وسوف أغوص رويدًا رويدًا في الماضي وأحاول عقد مصالحة معه.

قالت: أي نظارة وأي مصالحة، هل أنت تلعبين؟

قلت: نعم سوف أتلاعب بالماضي، قبل أن يلاعبني، وكل ما أريده منك أن تعيديني بهدوء إلى الحاضر وتوقظيني

على مهل، إذا رأيت أنني في حالة انهيار أو صراخ أو ما شابه.

قالت: حسنًا.. خذي نفسًا عميقًا، وأخرجيه بلطف، ثم كرري ذلك حتى تشعري أن عينيك مثقلة بلوح أسمنتي، وكل خلية في جسمك تريد أن تنام، وارجعي إلى الوراء بذاكرتك وقفي عند أي محطة تشائين.

بدأت أعود وأعود وأغوص على مهل، حتى توقفت عند هاجس غريب أصابني وأنا في عمر خمس سنوات، صور من الحرب ونشرات أخبار وأصوات رصاص مفزعة ودوي مدافع وحركة طائرات، كانت تجعلني أستيقظ من النوم فزعة بينما أهلي يحاولون تهدئتي وأنا أبكي ولكن دون جدوى، ولا يعرفون ما سر ذلك.

أرى المشهد كأنه فيلمٌ يعرض على شاشة السينما، أرى أمي وهي تضمني لصدرها وتظل تقرأ عليَّ أيات من القرآن، فأهدأ وأنام، كأني أشم عطرها الآن، أرى وجهها جيدًا، تمامًا كأنها معي اللحظة، مددت أصابعي ومسحت دمعتها،

وطلبت منها أن لا تخف، فابتسمت، ونظرت لأختي الكبيرة نادية تجلس قربي، فابتسمت وابتسموا، ثم ذهبت لأصالح الفزع الليلي، فمحوت صورة الحرب ورسمت بدلًا منها صورة بستان زهور، وأبدلت الطائرات في مخيلتي حمامَ سلامٍ أبيضَ ناصعِ البياض، وأبدلت صوت الرصاص زغاريد، ونشرات الأخبار أغاني فرح.

سمعت صوتًا قادمًا من بعيد يقول لي: والله أنا التي ضيعت وقتي عبثًا، جئتك حتى تلعبي، لمَ لا تلعبين وحدك يا مرام، خذي نظارتك ودعيني أنعم بإجازتي، حرام ما تفعيلنه حرام، وحين فتحت عيني وجدت مريم قد تركتني وهي تظن أني صنعت لها مقلبًا ساخرًا.

أغمضت عيني مرة أخرى، وشعرت براحة عظيمة وأنا أزفر نفسًا عميقًا، جعلني أستعيد نشاطي مرة أخرى، نهضت وجلست على أرجوحتي في حديقة المنزل، وإذا بي أتذكر ما فعلت، وأشعر بارتياح أكثر، ثم أضحك، كيف فعلت هذا؟ وكيف تغير مزاجي بهذه السرعة؟

وقمت أضرب يدًا بيد وأنا أرى أن الماضي طيع للغاية وأنا التي كنت أراه غولًا عصيًّا عن الترويض، وتساءلت كم خزنة عندي يا ترى؟ كم صندوق يجب فتحه وتغييره وعقد مصالحة معه؟ كم غرفة مغلقة في الذاكرة جعلتني أرى الأشياء مثل بوم قابع في أركان البيت، والخفافيش في سقوفه، والأشباح تتربص بي من زواياه؟

في عصر اليوم.. اتصلت بمريم لأعتذر لها وأقسم لها أن ما فعلته ليس مقلبًا؟ وإني حين كنت أضحك، فقد كنت أضحك من الفرح، ولم أقصد إزعاجها البتة، حينها دخل مهند ووقف خلف الأرجوحة، واحتضنني بذراعيه، وقال: لقد جئت اليوم مبكرًا، أنجزت التصوير ولم يتبق لي سوى المونتاج، ثم نظر إلى وجهي مندهشًا وكأنه لاحظ تطورًا طرأ على حالتي النفسية، فقال: ما لكِ اليوم مورقة؟ ما سر هذا؟

التفت إليه وقلت: أنت

قال: أنا؟

قلت: نعم، فأنت سر سعادتي، لولا أنك تكدرني بمثل هذه الخربشات التي على رقبتك... يبدو أن الفيلم كان جارحًا.

قال بتلعثم وكأن الحروف تيبست في حلقه: أي خربشات؟

قلت: هل كنت تصور فيلم أكشن؟ ضحكت وقلت دعك من هذا، فقد أعددت لك وجبة من المطبخ السعودي.. كبسة

قال: من الواضح أنني متورط في كبسة

كنت أعلم لمهند علاقة بأخرى، كنت أشم عطرها في قمصانه، وأجد آثارها في شعره ورقبته وصدره وخلف أذنيه، لكنني في عالم لا يؤهلني للدخول في معارك، ورتابة حياتي تجبرني على تجرع البين وامتصاص الجزع، أشعر بأنني أقاتل في معركة لا أعرف ماهي ولا متى تنتهي. لا أصدق أن غرفتي مربعة الشكل وليست دائرية! ربما لأني لم أجد متكأ أسند عليه ساعدي، حبيسة خيارين أحلاهما مر، إما الجلوس متربعة على عرش الهم، أو الوقوف انتظارًا للقدر، أشد حقائب السفر، أو أتأهب للسفر أو كأنني في الرحلة فعلا.

ما يهون عليَّ نزوات مهند أنها نزوات، وأنني بين الفينة والفينة أكزه في خاصرته، كي لا يتمادى أكثر، سألته ذات مرة، ماذا يعني أن تكون رهين المجهول كالريشة في مهب الريح؟ توقف عن ارتشاف قهوته باستغراب، وغمز بعينه ونظر إليَّ قائلًا: ربما حالة استسلام للريح، مسكينة هذه الريشة لا حول لها ولا قوة مع أنها جعلت غيرها يحلق عاليًا.

قلت: أنا هذه الريشة

ضحك مهند ضحكة طويلة، وقال:أنت أعظم طائر يحلق في سمائي، شامخة كالنسر، ذكية كالصقر، وديعة كالحمام، حانية كالنوارس، شاجية كالكروان، ساحرة كالطاووس، ناعمة كالعصافير.

يغرقني في بحر حبه كالعادة، قبل أن يعلمني السباحة، قاتلة كلماته، توقد في قلبي قناديل الفرح، تهبني سعادة لا تحتمل، تجعلني ألهث خلف حروفها، وأتشبث بها بقوة، وأسير إليها كمجذوب يبحث عن ضوء لا يراه غيره، ولا يعرف متى يراه.

كرسي الاعتراف
مهند

على رصيف الحياة شواهد ومحطات، دفء ونور وألقٌ وعبير وبعد وقرب وبغض وحب، وبين هذا وذاك أتنفس وأختنق، وأفر إلى الصمت فرار الملهوف إلى البوح، أبحث عن ذاتي في التفافات الزمن، وتعاريج الأمكنة الممتدة على سواحل الحياة.

أبحث كل الوقت عن فرحة أسكبها في كأس "مرام" حين يغلف السهد جفنيها وتضج بالأرق، أبحث ولا أجد فرحة بين راحتيها، إلا فرحتي بأنها تنبض بي.

تعرفت منذ سنوات على إحدى الزميلات في الأكاديمية، وبدت كأنها زهرة قدحت في فصل الربيع، يقبل الندى براعمها وأعوادها، ويضحك المدى لابتسامة شفتيها، ويتنفس الريحان من ضوعهما تنفس الغريق للأوكسجين، تمر في الأروقة كأنها

تتلوى، تتلظى، تترك للجميع فرصة ضبط نبضاته على إيقاع خطوها، وكعبها العالي، الذي يطرق الرأس قبل الأذن.

كلما تذكرت الطريقة التي تعرفت بها عليها تعلوني حمرة الخجل، فقد أعطتني قرصًا مدمجًا فيه فيلمٌ قصيرٌ لأحد الطلبة، كي أضع ملاحظاتي عليه، وفعلا سجلت بعض الهنات عن الفيلم وسلمتها القرص المدمج، شكرتني بيدين حارقتين كجذوة اللهب، فربما لأنها امرأة من نار.. لا أدري.

ما أدريه جيدًا، أن هذه النار لفحتني بأسرع مما كنت أتخيل، فقد دخلت عليَّ في غرفة المونتاج، وقالت: لم أكن أتخيل أنك بهذه الوقاحة، ورمت بوجهي القرص وتركتني أبحث عن شيء ألملم به خجلي وأواري حمرة خدي.

فتحت القرص فوجدت فيه العجب العجاب، كان قرصًا إباحيًّا يندى له الجبين، وعلمت حينها سبب الانفجار وتقاذف الشرر، ففي صباح اليوم التالي، طلبت منها أن تمنحني فرصة لتوضيح سوء الفهم، لأن القرص قد استبدل ووضعني في موقف لا يحسد عليه أحد.

ومن هذا الموقف المضحك المبكي بدأنا نتقارب أكثر حتى أصبحنا أصدقاء، وتوالت اللقاءات بعدها وتبادلنا الأفكار والأعمال، حتى رسونا عند لحظة الحقيقة، لحظة تشبه طرق الحداد على الحديد المحترق، يظل يطرق إلى أن يلين، فقد لان قلبها حتى الانطواء، ولكن في قلبي حجرًا، لا أرى امرأة أخرى سوى امرأتي مرام، فحبها لا يحتمل التأويل ولا يقبل الإعراب، ثابت لا يتزحزح كأنه ممنوع من الصرف، وكأني منذور لأكون قربانه وحده، وأن اركض في دروبه إلى ما لا نهاية.

قالت سمر وهي ترى صدودي: ليتني لم أمر يومًا بمدارك، ولم أرتطم بكوكبك، ليتني لم أعبر حدودك، ولم أبحر للضفة الأخرى.

قلت: أيامي معك تجعلني أرى الأشياء عبر نافذة قطار مسرع، نائية وجميلة، ولكن القبض عليها مستحيل

قالت بحسرة: آه لو منحتني تأشيرة الدخول إلى دورتك الدموية، لأشمست دجاك ولجعلت حصى أيامك يواقيت وفراشات

قلت مبتسمًا: وهل عندي دورة دموية أصلا

قالت: صحيح والله.. أنت بلا دم أساسًا

ضحكنا معًا وكأننا نعلن عن صداقة من نوع آخر، صداقة غريبة فعلًا، نادرة للغاية، ولكنها واقع لا يسع نكرانه، وأضفت الأيام على ذلك القرب حلاوة، واكتشفت أنني متورط في البوح لها بما لا أريد البوح به، وأنني في حضور أنوثتها الطاغية أجلس على كرسي الاعتراف.

مع أن العراقي بالذات دائم الحرص على عدم البوح بما في نفسه لأحد، بل لو استطاع ان يُخرس مرجل أحزانه عن نفسه أيضًا لفعل، مخافة أن يسمعه أحد فتلسعه ألسنة الشامتين، لكن تناقضات حياتها: اتزانها الملتهب، وهدوءها الأنيق، وحتى أخطاءها التي تبوح بها، شجعتني أن أعلن أنني إنسان أيضًا، يرتعش مثل العصفور تحت أنداء المطر، أبكي حين تستحضرني، وأتحول بين يديها وردة حمراء.

قلت: أخبريني كيف ترينني؟ هل أنا شرير أم إنسان صالح؟ هل أنا قوي أم ضعيف؟ هل أنا على صواب أم على خطأ؟

قالت سمر وهي تبتسم: ومن قال لك أنني فيلسوفة؟ أنا مثلك لا أعرف، بل على العكس إنني في بعض الأحيان أشعر بالطهر وأبحث عن من يأخذ بيدي. ومرات أخال أنني أنجس كل طاهر أمر به أو أمر عليه.

قلت: وما يمنعك من التطهر

قالت: ذات السبب الذي يمنعك من الارتباط بأخرى؟ إنها القناعة، فلدي قناعة بأنني إذا ذهبت إلى الكعبة فسوف يطردني الله وأعود خائبة،فمرة أراني نقطة طائشة تتقلب على صفحات الزمن البيضاء لتترك عليه خطوطًا شرسة جريئة، وتارة أراني امرأة منكسرة، بل طفلة مُتعِبة، وربما مغامرة لا مبالية وضائعة وقت الرياح بين ذرات الرمال.

قلت: الله أكبر مما تتصورين، وفي أقداره فرح مخبأ، يسد وجعك مهما اتسع

قالت: متى تتغير قناعتي لا أدري.

قلت: إذا كانت لديك قناعة، فأنا حليف الشك، في سجال دائم بين عقلي وقلبي، لا أدري هل زوجتي هي نقطة

قوة أم كوة ضعف؟ ولا أدري هل أطلق سراح أحلامي في ولد يحمل اسمي في الحياة، أم أكبح لجامها فلا تتمادى وتنطلق في عنان الخيال؟

قالت: أنت تطلب ما عجزت عنه يا مهند

قلت: أنا فعلت، أنا قتلت الماضي، كالنهر لا يلتفت وراءه حين يسير.

قالت: لن يموت الماضي لو أفرغت فيه بارودك كله، فنحن لا نملك سحقه، بيد أننا نملك تغيير وجهات نظرنا نحوه

قلت مندهشًا من كلامها: أقسم بالله أنك فيسلوفة.. وأكثر

قالت وقد لفت ذراعيها على عنقي كغصنين باردين: مذ عرفتك أصبحت كذلك.

في غرفة الإنعاش
وليد

ترقد في السرير وحيدة، وفي يدها منجل السنين تضم الحصاد في نوبة قلبية رزحتها تحت أجهزة التنفس والمحاليل والمغذيات، أتأمل أمي وهي تلتقط الحياة تارة ويلتقطها الموت تارة أخرى.

وصلت داليا إلى المستشفى، فقد كانت في دولة الإمارات، حيث تعمل في شركة تجارية، وحينما رأتني اختلط دمعها بنشيجها، فقد كانت أمي تعدل الكون كله، وليس لنا في الحياة غيرها.

في هاتفي ثلاثون اسمًا لمن كنت أسميهم الأصدقاء المقربين لكن لم يحضر منهم أحد، ولم أتلق المواساة من أحد، فتمنيت لو أن فم الأرض يبتلعني كي أُجار من الشعور بالتضاؤل والازدراء.

مرت الساعات كالسنوات، والدقائق كالشهور، وعقارب الوقت ميتة لا حراك فيها، حتى زف لنا الطبيب خبرًا سارًا، بأن ثمة بوادر للتحسن، ومع الوقت استعاد حصان جسدها عافيته ونهض، وتعافى معها حلم رؤيتي عريسًا، وحين وعدت داليا أنها ستتكفل بكل مصاريف الزواج، رأيت في عين أمي رجاءً وتشجيعًا، فهززت رأسي بالموافقة فضحكت وضحكت معها كل إمضاءات الزمن على وجهها، تضاعيف أنفها، عظام فكها، خطوط جبينها التي تحكي ألف حكاية وحكاية.

لم تكن أيامنا بوتيرة واحدة، فكانت تتصاعد على أمي مثل بركان هائج ثم تخبو لتثور ثانية، فهذه ماكينة الخياطة التي كانت مصدر رزقها لسنوات خلت، وهاتان هما اليدان الذابلتان اللتان ظلتا ساهرتين تخيطان للناس ملابسهم ولا تتوقف إلا بعد أن نذهب في الصباح إلى المدرسة.

وتلك داليا التي تسابق الزمن وتتحدى الظروف كي تتحقق وتصبح شيئًا مذكورًا، وتلك ليالي الجوع والحرمان والسجن والألم كلها تشخص أمامي بكل وقاحة، فكنا لا نملك شيئًا، حتى الملابس والحقائب نستعيرها ممن نعرف، ولا نعرف إلا القليل،

ونقترض المال كثيرًا كي نسد حاجتنا، فقد كنا نحتاج الكثير.

رن هاتفي فإذا بفتاة من اللواتي أعرفهن، قالت داليا: لا ترد، إنك يجب أن تردم الماضي وتبدأ بداية جديدة، وحال البلد سيتغير وسوف تجد عملًا وتصنع أسرة وتستقر، ما رأيك لو اخترت لك شريكة حياتك بنفسي.

قلت ضاحكًا: أتمنى ذلك

قالت داليا: ما هي مواصفات شريكة أحلامك؟

قلت: أهم شيء أن تحب والدتي وتعيش معها بلا مشاكل، فأمي بحاجة لرعاية أكثر مني، وخاصة أنك ستسافرين إلى عملك.

قالت: صدقت، والأهم أن اراكم سعداء، فأنا هناك أواجه الحديد والنار ومع هذا عندي أحلى من العسل، لأنكم بخير.

قلت: هل هناك مشاكل؟

قالت: ونفاق ومكائد ومؤامرات، وعالم مليء بالمنغصات، تخيل أنني كدت أن أزج بالسجن لولا أن تدخل أخو مدير الشركة، وأنقذني وشهد لصالحي في قضية اختلاس أموال.

قالت لي العصفورة
مرام

بعد أيام تهب نسائم العيد، ويقف الحجيج على عرفة، وجرت العادة أن نصنع «كليجة العيد» وهي حلوى شعبية تصنع من الدقيق والزيت على شكل أقراص دائرية يتم حشوها بالتمر والجوز.

اتصلت بمريم كي تساعدني، ووصلت مريم متأخرة بسبب حادث انفجار أغلق الطرق، تربعنا على الأرض نقطع العجين كرات صغيرة، كل حبة تكفي لتكون لقمة واحدة، قالت مريم: لماذا كل عيد نصنع الكليجة؟ إنها متعبة، نظرت إليها شزراً وأشرت إلى العمل، أومأت إليها أكملي دون كلام.

قالت: ما هذا كيف ننجز العمل ونحن سكوت، تكلمي يا ابنتي فوالله سوف أنام من هذا الهدوء القاتل.

قلت ضاحكة: أتذكرين يا مريم، كيف كنا نجتمع في بيتنا الكبير نتعاون في صناعة الكليجة، حتى خالتي سناء كانت تأتي تصنع معنا الحلوى.

قالت مريم: أتذكرين مهند عندما يأتي ليراك بحجة المساعدة؟

ضحكت بقوة، وقلت: جزى الله نادية هي من ورطته بشوائها ووضعت الصينية على رأسه وذهب المسكين بها إلى الفرن ماشيًا

قالت: لا أتذكر بصراحة، بيد أنني أتذكر حين جاءت خالتي سناء تبكي وتولول بعدما علمت أن جارتنا « أم محمد» تريد خطبتك لابنها، وتجاوبت في البيت سجالات ودمدمة.

قلت: رأيتها تبكي وتهمهم بكلمات مبهمة وأجفانها تنفث بالغضب، سحبتها أمي على الفور داخل الصالة، ولكني فرحت يا مريم، أي والله فرحت حين وصفتني أم محمد بأنني جميلة ورقيقة، وأنني كذا وكذا وظلت تذكر محاسني حتى شعرت بأنني ارتفعت فوق الأرض، وصرت قاب قوسين أو

أدنى من ملامسة النجوم والأقمار والثريا، ولكن يا فرحة ما تمت، انتبهت إلى أن من تطريني أنثى، إطراء أصابني بعطش أكبر، لا يرويه إلا رجل، وأي رجل.

قالت مريم: تقصدين مهند؟

قلت: أعطيك سرًّا؟

قالت: سرك في بئر

قلت: وما المقابل؟

قالت: ألا يكفيك هذا العمل المضني؟

قلت: سر مقابل سر

قالت: حسنًا

قلت: أكذب إن زعمت أنني وقتها كنت عطشى لمهند، أنت تعرفين هو ابن خالتنا، وكثيرًا ما كان يزورنا ويبيت في بيتنا حتى قبل أن أكبر وألفت نظره ويعجب بي كرجل، كنت أنظر إليه كأي شخص عادي، لا أمتلك أي مشاعر نحوه.

ما عنيته شاب آخر، كان معنا في الجامعة

قالت: يا ما تحت السواهي دواهي.. أكملي

قلت: إن لم تخرسي لن أكمل، هل سمعت القصة كاملة حتى تقولي سواهي ودواهي وعوافي، ثم من أين تأتين بهذه الأمثال العجيبة.

قالت: أمزح معك، أكملي

قلت وقد عدلت جلستي فقد شعرت في قدمي ببعض الخدر من طول الجلوس: كان في قسم الجغرافيا، ولكن مع هذا كنت أذهب مع زميلاتي كي آخذ جرعة الجمال اليومية، من وسامته التي تأخذ اللب وتطير غطاء الرأس، كان ممشوق القوام حلو الشمائل، إذا مر عليه نسيم الريح يثنيه، متوردًا كأن الماء يموج في صحن خده، وهنا سمعنا دوي انفجار قريب، فزعت على مهند، فقلت: سأتصل به لأطمئن.

قالت مريم: أي مهند الآن.. أكملي القصة

وكزتها في رأسها ضاحكة وقلت: احترمي نفسك قبل أن أصنع منك كليجة

بالفعل اتصلت بمهند وكان يصور في إحدى الجامعات تقارير لإحدى الفضائيات، فقلت: يا ويلتي هل ما زالت هناك دراسة في مثل هذه الظروف؟

قال: الدوام متوقف، صورنا التقارير مع الموظفين، ثم إن الدنيا لا بد وأن تستمر، لا تقلقي عليَّ إذا تأخرت، لأني سأكون في المونتاج

أغلقت الهاتف وجلست ألتقط أنفاسي، ثم رفعت يدي وسجرت تنور الدعاء لمهند

قالت مريم: أسمر يا اسمراني

قلت: حمقاء.. لا تلوحي لي بالكلام.. أسمر يا اسمراني؟ وما أدراك بأنه أسمر؟

قالت: قالت لي العصفورة، وإن لم تكملي السر لن أعطيك السر

قلت: لا شيء.. بقيت على هذا الحال، لا هو انتبه، ولا عصفورة أخبرته بأن ثمة من يلاحقه بنظراتها.

قالت مريم: واخيبتاه، وتخرجت وذهب كل لحاله، أليس كذلك؟

قلت: هذا ما حدث.

قالت: أنا عندي سر أكبر

قالت مريم: لقد استمعت للحديث الدائر بين أمي وخالتي سناء، فلم تحتمل أن تكوني لغير مهند، ولهذا جاءت تقول لأمي: كيف تبيعين الفتاة؟ هل طمعت بالذهب والمجوهرات؟ فأخبرتها امي أنك ما زلت بعد لم تتخرجي، وأن لكل حادث حديثًا، وحاولت خالتي أن تخطف من أمك وعدًا لكنها لم تفلح، وعادت خالتي المسكينة خائبة.

قلت وقد ارتدى وجعي ابتسامة ساذجة: هذا يعني أن أمي لم تكن راغبة في زواجي من مهند؟

قالت مريم: ربما لأنه فقير، فقد أخبرتها بأنه لا يستطيع أن يفتح بيتًا ولا يقوى على أن يعيَّش مرام بنفس المستوى التي تعيش به في بيت أهلها.

رفعت كلماتها الغطاء عن ذكرياتي التي ما تزال آثارها في قلبي وأيقظت الألم النائم في صدري فامتعضت وأحسست بالخجل من مهند، الذي قطع بحبه خيط دموعي ونفض عني ركام الزمن واحتمل قرع صدره بأحزاني، واحتمل دباغ جفني وثقل دمي ورتابتي القاتلة سنوات عجافًا، ثم

قلت مستدركة: أوتذكرين أيتها الشقية كيف كنت أفوز في مسابقة الكليجة؟

قالت مريم وهي تعتصر ذاكرتها: نعم تذكرت في نفس حادثة الصفعة، وشعرت أنها صفعتني الآن بالفعل مرة أخرى، وعلمت أن صناديقي كثيرة كثقوب الناي في فم الريح كلما أغلقت واحدًا انفتح الآخر، وحادثة الصفعة صندوق آخر لا بد لي من مصالحته.

غيرت مريم الموضوع بسرعة وكأنها شعرت بارتباكي وسألتني: ما أصل تسمية كليجة؟

قلت: كوني أنا مختصة بالتاريخ الحديث والمعاصر - ومريم ترمقني بنظرات استهزاء - سوف أخبرك عن أصل تسميتها أيتها التلميذة، أصل كلمة كليجة غير معروف، فلا توجد رواية موثقة لأصل تسمية الكليجة، إلا أن هناك عددًا من الأقوال التي تُروى، ومنها أنها مأخوذة من كلمة «كليشة» وهي كلمة تركية، ولعل المقصود بها الأداة الخشبية ذات النقوش التي تطبع بها الكليجة وتعطيها شكلها النهائي

المزكرش، بينما يشير البعض إلى أن كلمة (كليجة) كلمة فارسية أو أردية تعني الكعك.

وضعت مريم الكليجة في الفرن، وذهبت لآخذ حمامًا ساخنًا، وتحت رشَّات الماء الذي يزخ على وجهي، انقطع النور وسمعت صوت مريم تقول: انقطعت الكهرباء، سأسرج لك الفانوس.

الفانوس، ذلك القنديل الذي يشبهني، أكل الصدأ خديه وغير لونه الفضي والنار تلعق فتيله الجاف، والزجاج يخنق هبّته المترنحة كالعجوز، يكاد ينطفئ مثلي، لا زيت فيه ولا حياة.

أدخلني الجو المعبأ بالبخار في شيء يشبه الحلم، فتذكرت حينما كنت في الصف الثاني متوسط ولم يتجاوز عمري الثانية عشر عامًا، أجلس على أريكة خشبية في المطبخ بين (نور وغادة) ابنتي جارتنا أم وسام، وأحمل بيدي ألبوم صور العائلة بكل فخر، وأشرح لهم صورة صورة، كيف تزوجت أمي هنا، وكيف أنجبت الملائكة الثلاثة، نادية وأنا وآخر

العنقود مريم، وإذا بصوت حاد يقطع جلستنا ويصرخ مرام، تفاجئت إنه صوت أبي، يقترب مني حتى صار في مواجهتي وصفعني بقوة، وقال: كيف تجرؤين على أن تأخذي الألبوم وجرجرني خارج المطبخ من ضفيرتي المجدولة، بينما نور وغادة تهربان من الفزع.

لم أدرك أن الصفعة في الشتاء تلفح كالنار، وأنها تلهب الخد وتفطر القلب، علمت بعد حين أن أختي " نادية" هي التي وشت بي عند أبي، لا أدري لماذا؟ لم يشرح لي أحد ما غلطتي؟ لقد طرقت نادية أسياخ الحديد الساخنة في إخوتنا، وانقطع الوتر المشدود بين قلبينا، وخلَّف هذا الموقف جرحًا غائرًا في الذاكرة، وبنى على أثره بيني وبين نادية جدارًا من الصمت ظل يعلو ويعلو حتى صار شاهقًا.

معاطف الغفران
مهند

حملني دكتور وائل بمساعدة لفيف من الطلبة وأصعدوني السيارة، قال وائل: لن أدعك تقود، أنا سأوصلك إلى البيت وأطمئن عليك.

قلت وأنا ألتقط أنفاسي: ماذا حدث؟

قال: لا تتكلم الآن، لا ترهق نفسك

حكت لي مرام أنني قد أغمى عليَّ في الأكاديمية، وقد أوصلني دكتور وائل البيت، وأنني نمت في سابع نومة من شدة الإرهاق، توقفت برهة ثم قالت: اتصل عليك يوسف ثلاثين مرة ولكن لم أرد عليه.

قلت بارتباك: يوسف؟

قالت: من هذا؟ أول مرة أعرف أن لديك صديقًا اسمه يوسف

قلت: لا تبالي، هذا طالب عندي

قالت: طالب؟ حسنا وذهبت

تسمر عقلي في محجره، وغصت في بحر لجي من الأفكار والأحزان والحيتان، شعرت بما لم أشعر به من قبل، وخز يشبه الخجل والشعور بالتضاؤل، شعرت أني أحمق يلهث خلف غجرية عارية القدمين، تمنيت لحظتها أنني لم أخذل حبيبتي التي تطير فوق برائتها النوراس والفراشات والعصافير، وتنبت الأزهار على آثار قدميها، تمنيت أن أمزق كل أخرى، أي أخرى، أكسرها كقطع المرايا.

نظرت إليها ونظرت إلي، وتقابلت عينانا، شعرت بأنها رمتني بسهم كضربة شمس تقضي ضحيتها صريعًا، أو كدوار بحر يحول ركبانه إلى خرق بالية، نظرت إليها وهي تعيش في أعماق سراديب ودهاليز سرية الأوجاع، ملبوسة بالآلام ومسكونة بالأشباح، تشحذ أسنانها وأظفارها على جدران الماضي البشع، فزدت فوق حملها حملًا ثقيلًا، وغرست في قلبها خنجري، لأفتح لها شارعًا جديدًا في معاناتها.

قلت: يكفي يا مرام ما بي من جحيم متصل، أرتشف جرعاته على مهل

قالت: كن جناحي لأطير من جديد إلى الشمس والفرح

قلت وأنا أرى في امتقاع لونها ذكريات لا تحتضر: كيف؟ وليلتي بلا قمر، وبوصلتي بلا وجهة

احتضنتني، كالأم حين تحتضن وليدها، وسحبتني إلى مقعد وثير، وقمت أبكي على يديها أبحث عن ملاذ، عن قاع لصرختي، فقالت بهمس يتسلل كلص إلى أذني: لنتعاهد منذ اليوم، أن لا ينفرد أحد منا بقلبه، فمن ينزوي ياحبيبي تلتهمه قروش الكآبة.

قلت: الكآبة هي من أخذتني لسمر، اختبئت فيها من نفسي

قالت: سمر أو سحر أو سميرة أو أي امرأة أخرى، لا يهم من تكون، المهم أن أكون كونك ومجرتك التي تملأ عينيك، ورئتيك، وعروق صدرك وخطوط يديك، حتى لا أسلمك فريسة للضياع.

قلت: نحن نستحق هذا الطهر، هذا الحب، ونحن من أتباعه الطيبين

قالت: لا بد أن يتسع صدرنا لا نزال معاطف الغفران ياحبيبي

اشتبكت أصابعنا بقوة وتحولت نظراتنا لنعيم بعدما كانت سوطًا جلاده يضرب دون هوادة، وتنفسنا هواء هو أنقى من الأوكسجين، ما زال يرد علينا روحنا.

تائه.. والروح في أسفارها زمن
أبحث عن الطريق..
عن الصديق..
عن السكن
وحين رأيتك يا حبيبتي
وجدت فيك.. ملاذ روحي
براح عمري والوطن

عالق في الحب
وليد

رغم أني لم أكن طويل القامة، إلا أن عضلات جسمي المفتولة، أهلتني للعمل في شركة أمن خاصة، كأحد أفراد الحراسة في معهد الفنون الجميلة، وهناك لفتت نظري طالبة في المرحلة الرابعة، أنثى معجونة بماء الورد، وكأنما قُدَّت من رحم الشمس، وشعرها المسدول إلى قدها كأنه حيك من غياهب الليل، تتراقص الأرض على أنغام خلخالها، وحيث تسير خطاها يفوح العطر وتنفرج الأسارير بضحكتها الآسرة وصوتها الرقيق المترف.

حين تدخل وتخرج من البوابة الرئيسية للمعهد، كنت أرسل إليها سهم النظر من طرف خفي، لا أبتسم، لا أتودد، لا أحاول فتح أي كلام معها، وهذا ما أثار حفيظتها، وجعلها تنظر إلي بطريقة مختلفة، فقد اعتادت أن تتسكع أعين الجميع بين

خطوط جسمها المنحوت، يتلطفون أملًا في بسمة منها أو نظرة.

مع أنني مخلوق من ماء إلا أنني لا أنفي احتراقي حين أراها، أكاد أقلع جذور الصبر من التراب، إلا أن صبر الرجل لا كصبر المرأة، فالرجل يصبر عن المرأة ولكن المرأة تصبر فيه، لأنها بعضه وهو كلها.

عيناها بحيرتان هاربتان مارقتان، وشعرها الغزير الناعم كصخور سوداء على شاطئ البحر يغمرها الموج ويبتعد ليجمع شوقه ويرتد في الحال يحضنها ويلثمها في وجد لا ينفد، لذلك كلما نهلت من بحر جمالها أصابني الظمأ ولكني كنت أتظاهر بأنني لا أبالي بها رغم اشتهائي لحرف واحد تنطقه، إلا أنني صبرت على جوعها حتى استوت، خففت النار حينًا وأضرمتها حينًا، حتى أصبحت جاهزة.

لم أكن طاعنًا في المكر العاطفي، ولكن تلتصق بي النساء من دبابيس غريزتهن ومن أقراط رغبتهن أسقط النساء كتفاحة نيوتن، أجعلهن ينضجن على غصن الانتظار، وأغدق عليهن المفاجآت، حتى يسقطن في حجري.

قالت: أنت مختلف عن بقية زملائك

قلت: وهل هذا أمر حسن أم سيء؟

قالت: لا.. بالعكس إنه أمر يدعو للتساؤل.

قلت: المرأة تحب الرجل المهاب، ولا تميل إلى المتملق

قالت: ولهذا أعجبت بك

قلت: ولكن أنا لست معجبًا بك

فغرت فاها وقالت: ماذا؟

قلت: أنا ذائب مثل السكر في قعر غرامك، فلجمالك وهج ولبهاءك عبير، لا يصمد أمامه أعتى الرجال

فرجع إليها النفس، وقالت بدهشة: يا ويلتي أنت شاعر؟

قلت: لست بشاعر، ولكني كوكب سيَّار من المشاعر، في أضلعي أخبئ ثلاثة أرباع الحنان

بدأت الحكاية، وامتدت علاقتنا أشهرًا طويلة، صرت أتصل عليها يوميًّا، سواء رأيتها خلال الدوام أو لم أرها، كنت أتصل بها لأقول لها فقط، صباح الخير، ومساء الخير، وأشعرتها بأنني لا أستطيع أن أهنأ بنوم قبل سماع صوتها،

فشعرت هي بأنني أحيطها، أحاصرها، وبدت كأنها تحب هذا الحصار، فلم تشكو منه أبدًا، بل اكتفت بالاندهاش من هذا الفيض، فقد تعودت على علاقات سطحية مع الجنس الآخر، وبنت سورًا عاليًا حولها، فلا يتسلل إليها ولا يتسلق هذا السور سواي.

صارت تفكر فيَّ كثيرًا، تفكر في أحاديثي وفي شخصيتي الغريبة، لعلها لم تعرف شخصًا في حياتها مثلي، فأنا في مفهومها كارثة متحركة، أتحدث بتلقائية آسرة، أمسك يدها أثناء الحديث، وأضع يدي على كتفها إذا جلست بقربها، أغرز لمساتي في جلد هدوئها دون أن تصد أو ترد، وربما لأنها تخشى خصومتي ونفوري، أو لأنها استعذبت لمساتي دون أن تصرح بذلك.

غارت ينابيعها في دوحتي وأصبح طينها طوع جذري، وأمست كالعجينة الطرية الرخية اللدنة، فسيجت بستانها بنهري وأذقتها أعذاق النخيل الطيبة، وأشعلت فيها ثورة التأنيث، ولم تستطع أن تخفي ارتعاشة جناحيها من جحيمي حين نقشت فحولتي على لحم أيامها وشمًا فريدًا.

ولأني لم أكن سوى بيت للجوع يتلوى منذ زمن بعيد غزوتها بلهفة نهر يرسم دلتاه أولًا ثم يغرق بفيضانه، كلانا غرق في الآخر حتى الضياع لكني تركتها هملًا بعد حين مثلها مثل أي فتاة أخرى عرفتها، وأنكرت زيت دمها في قناديلي المشتعلة وقطعت علاقتي بها تمامًا، خاصة بعد أن انتقلت إلى حراسات إحدى مقرات الأحزاب التي ظهرت بعد احتلال العراق.

وفي عصر يوم غائم، قابلتها في المطعم صدفة، تجلس مع صديقتها وقد أكل الدمع عينيها، هوت أفكاري شهبًا محترقة حين رأيتها تتقدم نحوي وقالت: أين أنت؟ خيطت شارعًا بشارع ولم أعرف كيف أصلك، ألم تعدني بأنك ستبقى بقربي على مرمى دمعتين مني؟ ماذا فعلت لك كي تتركني وترحل؟

قلت: ماذا تريدين الآن؟

قالت: أريد أن تتزوجني، كما وعدتني

قلت: لماذا أمتلك قطارًا أستطيع أن أشتري فيه تذكرة؟

قالت: لأنني حامل أيها المعتوه الظليل، هل ستتركني كورقة شجر جافة تطوحها الريح في مجاهل الطرقات؟ هل ستترك غدي يتساقط من ثناياي بفضيحة مدوية مثل خطيئة بألف رأس؟ كجندي هارب تتعقبه المروحيات بقذائفها؟

بيد ثابتة سددت خنجري إلى حبي القاطن في قلبها وقلت: ابحثي عن أبيه بعيدًا عني

بكت وقالت: الآن قد انكشف سواد المشهد، لكن لماذا جعلتني أحبو على جمرك وأمشي على مائك؟ ولماذا جعلتني أمد رجلي في الفراغ لأقع في حفرة على مقاسي، ماذا فعلت لك كي تتركني في قيعان اليأس أعقد الصفقات مع الأنقاض والهزائم؟ لو لم تنفذ إلى جلدي وإلى أعماقي، لمحوتك، كما أمحو البخار من زجاج الذاكرة، ولما فتح الندم في قلبي آلاف الممرات الموحشة، لكني أحببتك بصدق، وصدقت عينيك حين أبرمت وعودها.

وأنا كعادتي أنوء بصمت موحش، ولم أبال بما قالت وردمت حنجرتها بالتجاهل وأنهيت كل ما كان بسهولة كمن

خط الحب ومحاه، فنظرت إليَّ طويلًا ثم تلفعت بإزار قوقعة وآثرت الانسحاب يائسة وهي تهيل عليَّ اللعنات.

وبعد أيام من هذا الموقف، ذهبنا لخطبة الفتاة التي رشحتها لي داليا، ومنذ أن رأيتها نسيت القتال، ومقت الحرب، وأمسيت أسيرًا للسلام، وتساءلت هل من المعقول أني سأودع أيام الشقاوة غياهب النسيان؟ هل يعقل أني سوف أولد من جديد على يدي هذه الفتاة الراقية؟ وفي أول حديث بيني وبينها، كان في كافتيريا كلية الآداب حيث تخرجت، قالت مرام: لِمَ أنا من بين النساء؟

قلت: ربما حسن طالعي وسوء حظك.

ابتسمت قائلة: وربما العكس

قلت: لا تنتظري من رجل مسحور، أن يفك لغزًا أو يحل مسألة، فأنا في النهاية رجل بسيط، ولا أقاوم ذكاء امرأة متعلمة مثلك.

قالت مرام: حدثني عنك

قلت: بين فلاسفة العشق وفرسان الحب، لست سوى مجنون، تستره بسطة في الجسم ورغبة في المغامرة.

قالت: وهل ارتباطك بي إحدى مغامراتك؟

قلت: أنت أجمل مغامراتي

انتهى اللقاء ولم ينته قلبي عن الطرق، لعلها علامات حب حقيقي لم أجربه من قبل، لعلني أصبت بلعنة كنت أزرعها بكل من أمر على أجسادهن وأتركهن للجحيم، وأقول في نفسي: أيها الهارب من ماضيه المحفوف بالألم، أيها الرامي نفسه بين أحضان المومسات، ماذا حصدت سوى الغثيان والشوك؟ ثمة شعور يغير كل شيء حولي، ويجعله أجمل.

صار انتظاري لرؤيتها أو مهاتفتها طقسًا يوميًّا، طقسًا أشبه بالعبادة، فكأن ما أحتاجه من الطهر محتجز بين عينيها، وتلا اللقاء مشاعر تدشن لأول مرة، لم أصدق أنني أمتلكها، تتخللها أنفاس جائعة للجمال، قلت: حبيبتي.. بما تشعرين؟

قالت مرام كلامًا أنيقًا انكسب على روحي كالينابيع في أوردة الجدائل: لم أتخيل يا وليد أن حبك يحوي كل هذه العظمة، ولم يخطر في ذهني أنه سيستوطن خلاياي، وأنني

سأجتر حروفك بنهم وعطش، فقد أصبح حبك جنونًا يجالس أفكاري، يطاردها، يروضها، يأمرها بالتوقف فتطيع.

قلت: وأنا كذلك أحسست أنك سددت فراغات روحي وملأت عقد النقص والحرمان، لقد أُطفئتْ رغبتي المسعورة، وصار يهذبها حرف منك وكلمة فيك، فتحولت أليفة، وكفت عن النهش، وتعلمت على يديك أول دروس السلام.

قالت: أتشرب السيجار؟

قلت وقد ألقيت نظرة عجلى إلى يميني: وهل تخافين علي صدري من الدخان؟

قالت: أخاف عليك من كل شيء.. حتى مني

قلت وأنا أدفن السيجار في المنفضة: سأجعل حياتي طوع أمرك سيدتي، ورن هاتفي، وقرأت على الشاشة اسم صغيرتي داليا، أهلا داليا.. كيف حالك؟

قالت: تحولت إلى كائن آخر يا فتى أم لم تتحول بعد، واسترسلت ضاحكة: لا تنكر أن عاطفتي حادة كالسيف ولساني كذلك؟

قلت: لا أستطيع نكران ذلك أبدًا.

قالت: إذن ارحم نفسك من طيش يجعلني أشكوك عند خطيبتك، وأجعلها تتدفق عليك كالطوفان فتغرقك، فلديها عاطفة تقطعك إلى نصفين.. أربعة وربما أكثر.

قلت: على رسلكما، أنا عالق بين قاطعة ومسننة؟

قالت: لا يا هذا.. أنت عالق بما هو آت.. سأكون عندكم الأسبوع المقبل لنتمم مراسيم الزواج.

دعوة زفاف
مرام

استقبلت في العيد ضيوفًا لطفاء عرفني عليهم مهند، زملاءه في الأكاديمية وشركاءه في مكتب الإنتاج الفني كذلك، وكان أقربهم لنا الدكتور وائل وزوجته صباح، وصباح ابنة فلسطين روح شفيفة، تحمل جيناتها تاريخ فينيقيا الجميلة، ولدت وترعرعت في العراق وأصبح بيني وبينها ود ورباط وثيق، ولطالما أعانتني كثيرًا طوال سنوات محنتي وبحثي عن رهف.

أخال الحياة من دونها جامدة، والأيام مشلولة، وحدها صباح تنفث في روعي أن الحياة مستمرة، وأن الناس في شغل فاكهون، وأن دورة الفلك ماضية في مسيرها غير آبهة لعالم الأحياء المائج بالحروب والمصائب.

على باب البيت ونحن نهم بتوديعهم، قدمت لي صباح دعوة لحضور عرس ابنة أخيها، فصككت وجهي مازحة

وقلت: هل أنا وجه أعراس؟ ثم كيف الناس ما زالت تتزوج والأمة العربية مشتعلة؟ فضحكت وضحكنا جميعًا وقبلتها ووعدتها بالحضور.

خبت قناديل المساء ودخل مهند لينام بعد يوم شاق من التسوق، ولا أدري لِمَ التسوق يتعب الرجال بينما يريح النساء، فجلست أمام التلفزيون ولم أر فيه ما يجذب، فتذكرت دعوة الزفاف، وتذكرت معها لحظة ما زلت أتذوق مراراتها حتى يومي هذا، حين قدم إلينا شاب وسيم الطلعة بهي القوام، في عينيه بريق أخاذ، وله وجنتان منحوتتان وغمازات، وضحكة تروي الظمأ، وجاذبية من نوع فاخر، نزل من سيارته الفارهة، مع أمه وأخته التي ليس لديه غيرها.

حين عرفت ذلك، حصل لي شعور مضطرب، مزيج من الخوف والبهجة، ألقيت جسدي على السرير، وخبأت وجهي تحت غطاء الصوف وانبجست من عيني نافورة الدموع، أستمع لصمتي وأتظاهر بعدم السمع، لا أنطق إلا بهيئة دموع، وبعد ساعة مرت كالثواني، دخلت عليَّ والدتي ومعها نادية ومريم، طلبت أمي من نادية ومريم مغادرة الغرفة تريد

أن تنفرد معي بحديث خاص، نظرت إليهن وهن مبتسمات، يخفين ضحكة قوية لم يستطيعا البوح بها بوجود أمي.

قالت أمي: بنيتي أنت الآن أصبحت شابة واعية وخريجة، ولديك من الجمال ما تشتهي النفس ويمنيّها، وما يلذ للأعين ويغريها، وإن هذه العائلة جاءت تطلبك لابنهم وليد على سنة الله ورسوله.

قلت: من هم هذه العائلة.. فنحن لا نعرفهم.

قالت أمي: أخبرتني أم وليد أنهم يسكنون في منطقة البياع، في بيت كبير ورثته من أهلها، فقد تزوجت وهي صغيرة، ولديها وليد، وداليا.

قلت: يبدو عليهم الثراء

قالت: لم يكونوا كذلك، فقد ربت أيتامها بعرق جبينها، وتكسبت بعد أن تخلى عنهم القريب والبعيد بماكينة الخياطة، حتى فتحت ورشة صغيرة أُغلقت بسبب ظروف الحرب، وظلت تعافر حتى أُتيح لداليا العمل في شركة استيراد وتصدير في الإمارات.

قلت: ما هو رأي أبي؟

قالت: سوف يسأل عنهم خلال اليومين القادمين والذي فيه الخير يقدمه الله

سألت نفسي كثيرًا، لِمَ أنا خائفة؟ ألم يتسلق عليَّ الخوف من العنوسة، وخفت فوات قطار الزواج؟ تماسكت كي أتخذ القرار، فلم أستطع، ترددت كالعادة، فلطالما كنت أحير أمي حينما نذهب للتسوق، أدخلها في سوق وأخرجها من آخر، وكثيرًا ما نرجع خاليين الوفاض، لهذا تقول لي دائمًا: إنك لا يعجبك العجب ولا الصيام برجب، وهي لا تدري أنني مترددة ليس أكثر.

لحظة عشق
مهند

في لحظة العشق تحدث العجائب، وفي لحظة العشق يستساغ الجنون، وتغدو الحياة مثل النهر، لا تستطيع أن تلمس مائه مرتين، لذلك قررنا أن نستمتع بكل لحظة، وأن نتحرر من دوائر مفرغة ندور بها كأن لا مخرج منها.

حملنا حقائبنا وسافرنا، لتحط رحالنا في القاهرة، تلك المدينة الساحرة التي تحكي شوارعها تاريخ شعب عريق، إلى القاهرة الساهرة على طرف منديل (الست أم كلثوم) تلوح آهاتها بدلال على كورنيش النيل العظيم لكل عابرٍ، صادق، تأمل رقائق صفحة مياهه الفضية.

سألني أحد الشباب الذين يعملون في الفندق: لماذا تحبون مصر؟

قلت: صدقني إنها قصة عشق عظيمة لعله لن يفهمها إلا أهل العراق، فحب مصر أقدم من عمرك وعمري، إنها قصة حكيت بصوت إذاعة العرب وأفلام الأبيض والأسود وطعم أطباق الفول والكشري. إنها قصة سكنت ذاكرتنا وجيناتنا، قصة داعبت خيالاتنا منذ الطفولة.

إنها القاهرة التي تعجز الكلمات دومًا عن وصف ذلك الأثر الغريب الذي يأتيك وأنت تستنشق هواء صباحاتها ونسيم لياليها، إنها القاهرة التي تذيبك فرحًا حتى بضجيج أصوات السيارات وصيحات باعتها المتجولين، إنها القاهرة قبلة القلب، ومحطة تشقق لها الذاكرة.

وهناك في أعالي برج القاهرة، سمح الزمان بأن نتغازل ونغني، أغنية لكاظم الساهر كنت أغنيها لمرام مطلع التسعينات:

يا عمري أنت أشكرك.. عز السعادة وياك
ما أبخل عيوني إلك.. و بروحي اتفداك
اقترب من عندي بعد.. ضم روحك بروحي

القلب بيتك للأبد.. تستاهله يا روحي

يا قدري وأحلى قدر.. محروس من عين البشر.. محروس

وبعد يومين من العشق الممتد، زرنا فيها الأهرامات والمتاحف والأسواق التي تعج بالعاصمة توجهنا إلى شرم الشيخ حيث البحر الساحر والأفق الواسع الذي يأخذك إلى عالم آخر.

كانت الشمس على وشك الأفول، وكان البحر هادئًا كهدوء نفسينا، مأخوذين بمرأى الشمس وهي تأفل خلف البحر، نظرت إلى عيني مرام ووجدت سوادهما كفقمتين تتراقصان، ووجدت بسماتها كفراشات محبوسة أطلق سراحها للتو، فهمست بصوت شفيف: ادخلي في ذراعي يا حبيبتي، واستمتعي بكل لحظة، سنمارس الشراهة في أفراحنا، حتى نتقد، ونلتهب، ويحترق آخر وجع فينا.

وبعد العشاء، توجهنا إلى خليج نعمة "شانزليزيه" شرم الشيخ، وهو مكان جميل يقع في قلب المدينة، يتجمع فيه السائحون من جميع أنحاء العالم، وفيه انزوينا بمكان هادئ، وقرأت لها قصيدتي:

تحدثنا كثيرًا.. تأملنا طويلا
ولم نحسم بعد القضية
ولم نعرف حين التقينا
أيداكِ ذابت أولًا أم يداي
ومن ارتج صدره بالحب قبلا
وغنت أضلاعه أغنية
ومن تجمد الدم في وريده.. حين رآك
وألقت شراييه تحية
ومن رق كالماء؟ ومن رفرف للسماء
وفاح كالورد.. رائحة زكية

صفقت لي مرام وهي تقسم أنني أعظم شاعر عاشق في دنيا المحبين، وفي اليوم التالي، أطلت الشمس ولاحت بأشعتها الذهبية خرجت لأتمشى على البحر، ألتقط أنفاسًا بكرًا، ونسمات باردة حبلى بالانتعاش، تاركًا ورقة على وسادتي فوقها وردة حمراء:

حين أستيقظ كل صباح.. أحمد الله مرتين

مرة لأن الله رد إلي روحي

ومرة لأنك روحي التي ردت

حين عدت وجدت مليكتي متوجة على عرش الجمال، هجمت تحتضنني بقوة احتضان الأسد الجائع على فريسته اللذيذة، دفنت رأسها بصدري وهمست: ارتديت الأحمر لأنك تحبه.

طرت فرحًا وانفجر العشق في شراييني وأنا أراها تستعيد بشاشة الروح في مهجتها، فذهبنا نعانق هواء البحر ونلامس رماله برقة قدمينا الحافيتين، وموجاته الباردة تلسع أطراف أصابعنا، قفزنا كالأطفال، وركضنا كالأرانب البيضاء في الحقول بين العشب والشجر، وتعالت ضحكاتنا وكأننا نضحك لأول مرة، وكأننا نولد من جديد.

وفي المساء ضربت الموسيقى أرجاء المكان، موسيقى ناعمة غطت بروعتها كل المنتجع، أغرتنا بالبوح والهمس الطويل، فقلت: اشتقت إليك.

تساءلت بصوت تناثر كالعبير: وأنا بين يديك؟

قلت وراحتها في يدي: اشتقت لتمريغ أنفي بعطرك، لتذوب أنفاسي في جحيم رئتي، فيمتد عمري سنين أخرى، اشتقت لأناملك وهي تثرثر فوق يدي عشقًا سرمديًّا، اشتقت لأنفث فيك الشوق، وأهب لك ما في العروق من حب.

قالت والقمر يتراقص في عينيها: ليتني في حناياك أقيم فلا تغيب عني أبدًا

قلت: كيف أغيب وعيناك هما بيت القصيد وأصل الحكاية

قالت: يراودني الشوق في أضلعي أن أرتشف حرفك المدرار، وكالحلوى ألتهم بعض كلماتك.. أن أضمك إلى صدري وأحلِّق عاليًا بحب فريد، لكنني أخشى أن الحزن كالجاذبية يمنعنا من الطيران دون أجنحة.

قلت بروح متفائل: فلتذهب كل قوانين الفيزياء إلى الجحيم، فلن أدع الشوق في مقلتينا صامتًا والبوح في فمنا باردًا.

قالت: حبك وحده من يبث في حروفي الميتة حياة ويجعلها كلمات ذات معنى، ورنة ضحكاتك في قلبي تُنْبت فيه أغصان العشق.

ثم أفلتت يدها من يدي، وركضت تضحك وتضحك وأنا أجري خلفها وألهث حتى أُنهك نَفَسي، قلت: انتظريني يا ابنة قلبي، ارحميني يا ريم الفلاة دعيني ألحق بك.. ولكن دون جدوى.

ورقة
مرام

حاصرني الفضول كي أفتح الورقة التي دسها مهند في يدي، شعرت وكأنها كائن حي يتحرك، يغمرني يغازل حرارة يدي، ويعانق دمي، ويقبِّل كل نبض، أبيت لكن الصبر بدأ يتسرب، فكان السيل جارفًا، والشوق هادرًا، ففتحتها ووجدت فيها عشقًا محمومًا يلفني، كشال صوفي، قصيدة استلت من ضوء الشمس:

قولي لهم أني أحبك
أكثر من موج البحر وصوت الناي
وأني سأظل أحبك أنت
نسمة روحي وعافية تملأ رئتيَّ
بين يديك أعود صغيرًا
ألهو وأعبث كالأطفال

وأنسى همومي.. كل همومي
وتكسر آلاف الأقفال
وكلي يذوب بحلو حديثك
ومزاجي يصفو في الحال
وقلبي الذي يحبك نورس
تعلم كيف يطير إليك.. دون جناح
يأتي ليشرب من راحتيك حياة
ويرشف منك مرام الحب.. وعصير الأفراح

لم أصدق كيف أن هذا الحب يجعلني أحلق بلا أجنحة، وكيف أستمرئ هذه الجرعة الزائدة من السقيا الحلوة المسكَّرة التي سقاني بها مهند، أحبني دونما عقد، أحبني والسواد يدبغ جفوني، أحبني ونصفي عالق في الحزن ونصفي الآخر في رهف، أحبني وأنا هيكل بلا روح، واحتمل أرقي ونزيف شجوني، وعصبيتي وتقلبات مزاجي، وطقوس وحدتي واغترابي، وفي المقابل لم أقدم له سوى حبٍّ منزوع الدسم لا يسمن ولا يغني من جوع.

اعتدت حين يصيبني الكدر أن أحاول قتله بالقراءة، أفتش عن منافذ للنور بين طيات الكتب، فلا أوفى ولا أصفى ولا أحفى من الكتاب، فالصديق يمل ويعتب ويهجر ويجفو ويصد أو يخون، أما الكتاب فلا ملل ولا عتب ولا هجر ولا جفاء، ففي الكتاب سلوى وأنس وحلية وري.

قرأت ذات يوم في كتاب تحفيز:

"إن الحياة قد تجعلنا ندرك أن الكثير من المشاعر ما هي إلا عثرات علينا أن نقفز فوقها"

لم تنهض قامتي لأنشب أظافري في وجه اليأس، وسكب الصبر في عروقي التي زحف نحوها الجفاف، لم أقو على المطاولة، ولم أزل أقع في كل مرة قفزت على مشاعري أو زحفت.

قبل أشهر ثلاثة كان الوقت متأخرًا حين ربتت "رهف" على كتفي قائلة:

نامي يا أمي.. فهناك وحش بالجوار لا يحب النساء مفتحات الأعين، وبعد أن أحست بأنفاسي انتظمت، تسللت على أصابع قدميها إلى الشرفة، وألقت بنفسها منتحرة !!!

مشطت القشعريرة جسدي واستيقظت فزعة، وكأن حريقًا نشب في صدري، فما رأيت كان مهولًا، مجسمًا، بالصوت والصورة والعمق والألوان.

أخبرني الدكتور عبد الكريم، أن الأفكار السلبية التي تزورنا في الأحلام وفي اليقظة لا بد أن نفتح لها ممرات للخروج، وأن الانتباه والتركيز والتفسير والتذكر، يمنحها قبلة الحياة التي لن يدفع ثمنها أحد غيرنا.

دعها تمر.. دعها تسير
خواطر تحوم في أمر خطير
تلتف كالثعبان.. كالماء في الصحراء
يبحث عن مسير
خواطر عجلى تبعث بالجنون
برقيات من غضب دفين
وأوجاع ضمير محترق حزين
دعها تمر فإن كتمتها ماجت
وكوحوش الغاب هاجت

افتح نوافذك كي تستريح
دعها تمر
دون جواز مرور
كالجنازة تبحث عن ضريح

نظرت إلى الساعة وهي تعلن موعد العشاء ومع هذا لم يصل مهند، اتصلت به فلم يرد، فزاد قلقي، وهو يعرف كم أخشى عليه السهر قبيل حظر التجوال، اتصلت بالسكرتيرة، فلم ترد هي أيضًا، والتمست لها العذر، فقد اتصلت بها بعد انقضاء عملها بساعات، تراها نائمة أم ربما منشغلة في التدريس لأطفالها.

أسندت رأسي على طرف الأريكة، ونظرت إلى الكروان وهو يغرد، وتصورت شكل رهف كيف يبدو الآن يا ترى؟ بعدما فارقتها وهي برعم ناشئ بعمر سنة، هل تُراها تشبهني؟ عيناها كعيني، ووجهها ممتلئ مثل وجهي؟ قسماتها؟ لمحاتها؟ تعرجات شعرها؟

عاد مهند أخيرًا، وبين يديه عذر جاهز كالعادة، وقرأت في عينيه حيرة تشبثت بملامحه، فحركة عينيه سريعة

وابتسامته نصف متوهجة، غير أني ليست لدي ثقة فيما رأيت أو تفسير وتحليل ما رأيت، لأني لم أفهم نفسي بعد، فكيف أفهم الآخرين وأحكم عليهم؟

في صباح اليوم التالي وأنا أطعم الكروان، وأتفقد ورق اللبلاب الذي بدأت أوراقه تنقدح وتتكاثر وتتكاتف في الشرفة، رن هاتفي يعلن عن مريم، فتبادلنا السلام والتحية، وأخبرتها بما لم أستطع إخفاءه فقد توهج الأمر بداخلي كالمصباح، إن مهند ليس على ما يرام.

فقالت: لا شك أن مشاكل الحياة تزيد الضغط عليه.

قلت: لا أعرف والله يامريم

قالت مستدركة: أم ترينه منزعجًا لأن هاجس الأبوة يطارده؟

قلت: بعد كل هذه السنين؟

قالت: لماذا لم تمح السنوات عن ذهنك رهف، فلماذا تريدين أن يمحى عن مهند شعور الأبوة

قلت: لا أغفل عن شهوته الخفية لكلمة "بابا"

قالت: لا تكوني أنانية يا مرام، فالأنانية تجعلك مفلسة، امنحيه جناحًا كي يطير، وعشًا كي يعود، وألف سبب كي يبقى.

قلت: لماذا تقذفين حممك فوق بركاني المشتعل؟ وأنت أكثر من يعلم أنه بقدر أمنياتي هناك خوف على الجنين، وأنا مريضة وليس على المريض حرج

قالت: إذن انتظري أن تأتي رائعة التكوين ست الحسن الكامن والظاهر، لتترك منحنيات جسدها فوق جسده، تستله منك وتنسيه ترتيل اسمك.

رهف
وليد

وصلت داليا إلى مطار بغداد فجر الثلاثاء الدامي، يوم قرمزي اللون، انفجارات بسيارات مفخخة واعتقالات عشوائية ومقابلات بالأسلحة بين المسلحين وقوات الحرس الوطني، وحين وصلنا إلى البيت بأعجوبة تنفسنا الصعداء، واستقبلت أمي داليا بدموع الفرح مرتين، مرة لأنها وصلت بسلام، ومرة لأن زواجي بعد غد.

حلَّ الخميس، وزفت إليَّ عروستي بأبهى صورة، تعلو عاليًا أنغام "المزيقة" موسيقى الأفراح الشعبية المشبعة بالزغاريد، مرت الدقائق ونبض قلبينا لم يهدأ، أسنلثم الحب حقًّا وسيمنحنا القدرة على إطلاق الأمنيات؟

انطلقت السيارة إلى شمال العراق، هاربين من حجيم العاصمة إلى جنة الأرض، ننثر الحب ونشدو أغنية الأمل، نرددها تعويذة لقهر الموت والفناء.

الموت الذي تسلل في ظلمات زمن أبله، من أرومة النخل ومن مستعمرات النمل ومن سلالات الخراب ومن بقايا حقب وحشية عجنت من طين فاسد، زرعت كروح غاشمة في هذه الأرض الطيبة، كفناء مؤجل دس في أحشائها، خطر لا يضاهيه خطر، لا خرائط ولا دلالات، ولا ضوء في آخر النفق.

كردستان، تلك البقعة المضفورة من الفردوس، سهولها الممتدة كبسط من حرير نضير يثير في النفس البهجة، وجبالها الشاهقات تتفجر منها شلالات وتنهمر على منحدرات تصب فيها الينابيع الرقراقة، لتتفرع منها مئات الجداول.

زرنا قلعة أربيل القديمة، ومصيف صلاح الدين ومصيف شقلاوة حيث أشجار السرو والبلوط، في جبل سفين، وأشجار الجوز واللوز والأعناب والسفندار، في واد خصيب تحيط به جبال صخرية يتدفق منها ماء غزير يتلوَّى في سواقي متعرّجة متفرّقة تارة، ومتّحدة تارة أخرى تلتقي في قعر الوادي.

وتناولنا أطيب المأكولات في مطاعم شلال كلي علي بيك، الكباب العراقي، والتكة، والمعلاك، والتشريب والقوزي، وما لذ

وطاب من الأطعمة والمشروبات كاللبن الشهير "لبن أربيل"، ناهيك عن جمال الأخلاق والخلقة، التي يتمتع بها الأكراد، فلديهم دماثة خاصة لا توصف، وطيب معشر لا يجارى.

وبعد أيام قلائل قفلنا راجعين إلى بغداد، ولم نكد نستريح من وعثاء السفر ومشقته حتى بزغت مشقة أخرى لم تخطر على بال، وهي علاقة قديمة بدأت تظهر من جديد، مع امرأة بيني وبينها أسفار وفصول لا تنتهي، اتصالات، ورسائل، ووساطات بل وتهديدات، ومحاولات لجر أقدامي إلى الماضي.

وقد اشتكت مرام من تصرفاتها المريبة، وتحدثت معي عن استيائها، فحاولت قدر الإمكان تهدئة الموقف فلم أفلح، فقد قرأت مرام رسالة وصلتني هددتني أنها ستنتحر إن رفضت لقاءها، وقد علمت مرام بأني قابلتها بالفعل، فجن جنونها، وشاط غضبها، وذهبت على إثرها غاضبة إلى بيت أهلها.

تمضي الأيام نحو الأسوء، وعلاقتي بمرام تفتر، حتى وصلني اتصال من أختها الصغيرة مريم، تخبرني أن مرام حامل، اعتراني ساعتها شوق عارم للبكاء، جلست يسفحني الحنين، إلى امرأة

استحلت ملكي، إلى امرأة استعمرت قلبي، وأوقدت أصابعها شمعًا من أجلي، وإلى طفلي الذي ينبض بها ويتنفس من غلوائها.

ذهبت إلى مرام، وقلت بأنفاس بطيئة: لقد ذبلت بعد أن فارقتني، وكان رحيلك سجني، مكافأة وعقابًا، فمذ أن تركت البيت لم أفارق حدود عشقك، لم ينبض قلبي إلا باسمك، لم تر عيني غيرك.

قالت مرام: القلب الذي ازدهر بحبك وأنبت بعشقك، كاد يذبل ويموت

ولدت مرام طفلة كالقمر ليلة البدر، تحدر منها جمال اللؤلؤ، شقراء بعينين زرقاوتين تحاكي بجمالها الغزلان، وجه مستدير ومستنير وخدان ناعمان بلون شقائق النعمان، أنف أقنى ملموم، وابتسامة كالورد تزهو، وأصابع يد كالبلور، شعرت حين حملتها بيدي أن دموعي سيولًا تخنق ألسنة اللهب، وتوزع في عروقي الصمت.

نظرت إلى مرام، ونظرت إلى أمي، وقلت: ماذا أسميها؟ قالت مرام: سمها رهف، فزغردت أمي هنا وزغردت داليا هناك عبر الهاتف، وزغردت معهما كل مفاصلي وأجزائي.

بحر وفتاة
مهند

مع شمس الغروب ذهبنا نحتضن البحر، فنبتت لنا عشرات الأجنحة الشفافة، وذبنا سحرًا وهيامًا ورقة وعذوبة، حيث النوارس البيضاء تطارد ظلالها في الأمواج، والمراكب المتعبة مقلوبة على الشاطئ ووجهها للسماء، والشمس قد نثرت أشعتها كآلاف القطع النقدية على وجه الماء، تتلألأ فوق زرقته، إلا إن الجو كان قارسًا بعض الشيء، فلففت مرام بذراعي، فشعرت يدها بالدفء في يدي، وبدت كعصافير الملائكة، كأميرة قادمة من زمن الأساطير، تهامسنا وتقاسمنا أرغفة الحزن، حتى تساقطت الأمطار من عينينا، وأغرقت أخاديد حفرها الحزن على خدينا.

قلت: كفانا بكاء يا مرام، والله تعبنا وأتعبنا

قالت مرام: أحاول العيش على متن الحياة، فثمة حزن أسود يسحبني لهامش فضفاض اسمه الماضي، بيد أن حبك

وحده من يطلقني من سجن الماضي إلى براح اللحظة، خذني بعيدًا يا مهند.. إلى مدينتك، إلى ليلك المقمر، إلى شارعك الطويل، حيث المتاجر وهدايا الأعياد، غيبني فيك كي لا أستفيق إلا على وجهك، كي أنبض في عروقك، وأتدفق فيك، وأحيا وسط أنفاس رئتيك، فرحابك الواسع هو الوحيد الذي يسع أرقي ولوم حظي.

قلت: وأنا كذلك، أحب أن أبقيك مقيمة داخل نفسي لأحصد من حقول عينيك بيادرًا من الجمال، فحبك مثل هذا الموج يتدفق، ينحدر كالسيل لا يعرف إشارات المرور، ولا يعبأ بصفارات الحرس، ولا يبالي بالسدود ولا بالخطر.

قالت والشمس تشرق من شفتيها: مهما حاول الحزن إغوائي، فلن يسقط ثقل حبك عن قلبي، فإنك أعظم شيء في حياتي، سأوقد لك الشموع بأصابعي، وأفرش لك وجه الأرض وردًا، ونشم عطر بعضنا في نفس واحد، وأحملك إلى بوابة الحلم أُلبسك غيمة من حنيني وأكون شتلة الأقحوان على خديك، وسنشعل آلاف البراكين ونحيي كل قصص العاشقين، وسيكون هذا اليوم ولادة عشق جديد

ولهفة لا تزول، وستغبطنا عليه الطيور والفراشات والزهور والنسمات والأنداء وحبات المطر.

قلت: تالله أنت شاعرة، لإحساسك نشوة الحديد الملظى لحظة التقائه بالماء

قالت: ثق من أنك لحظة تغيب عن عمري يا مهند، لحظة تلملم ابتسامتك، وصوتك، وضحكاتك، وأشعارك، ستنحني أغصان قلبي وستلفظ حياتي أنفاسها وستطبق أجفاني إلى الأبد، فحبك محفور في عظامي كأساطير الجدات وحكايا المسنين، حبك يزرع الجمر في مسامي والفرح.

قلت: تذوقي صوتي لتعلمي مدى عشقي لك

قالت: لحروفك أيادٍ حانية، ونهر محبة دون ضفاف،، فاسكب عليَّ الحب كما تسكب النواعير دلال الماء

تنهدت قائلاً: آه..كما هي النار تشتعل في خمائل الشجر، كذلك حبك يحرقني دون حريق

قالت: وحبك أيضًا يحفر في الروح أخاديد لا تُملأ أبدًا

قلت: يكفيني أن أراك

قالت: يكفيني أن أهمس لقلبي بأنك موجود

قاطع همسنا الجميل، صراخ بعيد، يقترب منا شيئًا فشيئًا، وإذا بحمل شارد من ذئب مفترس يهفو علينا، فتاة يانعة الجمال، لها إطلالة البدر في ليل الحياة، تصرخ تطلب الاحتماء، وخلفها يركض شاب بعضلات مفتولة، يتوسل إليها إن تطمر الذي حدث وكأنه لم يحدث.

قالت مرام بلهفة: ما بك يا ابنتي؟ من هذا وماذا يريد؟

قالت: حاول هذا الوحش التحرش بي لولا أنني رميته بقارورة الفلفل فاحترقت عيناه.

قالت مرام وهي تحتضنها وتربت على كتفها: اهدئي ياحبيبتي

قالت الفتاة وقد جادت بما استطاعت من البكاء: لقد هرب الآن كالفأر الجبان، لكني أقسم بالله أنني سأفضح أمره أمام الجميع.

وفي اليوم التالي، قابلت الفتاة نفسها بطلة قصة البارحة، في النادي الرياضي في المنتجع، وسألتني عن مرام،

لتقديم الشكر لها قبل أن تشد الرحال إلى الولايات المتحدة لدراسة الإعلام في جامعة بيركلي.

قلت: أنا مخرج تلفزيوني، وأعمل أستاذًا بأكاديمية الفنون الجميلة في بغداد، وسأكون سعيدًا لو استطعت أن أساعد في مجالك، وتبادلنا بطاقات التعريف، والعناوين البريدية والسلام.

وفي صبيحة يوم الجمعة عدنا إلى بغداد، وقد تأخرت الطائرة تسع ساعات قضيناها في المطار، بين ضحك وضجر، وأحاديث وملل، نطعم الوقت خبز الرتابة حتى وصلنا إلى البيت، شعرنا كأنه ليس هو، ملون بالحب ومؤثث بالوئام.

حين عدت للعمل وجدت مهامًا مكدسة تنتظر الإنجاز، ودخلت السكرتيرة بنصوص جديدة تنتظر أن ترى النور، وذكرتني بموعد الورشة وقراءة النصوص مع بعض الممثلين.

وفي خضم الأحداث هذه رن هاتفي فلم أستطع الرد، اتصل ثانية فوجدته اتصالًا من تونس، لعله من إدارة

المهرجان الذي سنشارك به الأسبوع المقبل، وعند عودتي في المساء، وجدت في هاتفي رسالة من سمر، تعتب عليَّ وتريد معرفة سر الغياب، فاتصلت بها، وقالت: كان عليَّ أن أشد أذن قلبي قبل إسرافه في الاشتياق لوهجك.

قلت ضاحكًا: لماذا؟

قالت: لا أعلم ولكنني كلما رأيتك تسقي العطاش، أعطش إليك، فجُد عليَّ ولو بالقليل من ترانيم همسك، كي أغدو لحنًا شاردًا فوق مقامات الهوى.

قلت: إنها زوجتي أيتها المجنونة

قالت: ومن أراد منك أن لا تسقيها، لكن أريدك أن تشعر بعطشي

قلت: كيف أرويك؟

قالت: ارتويت منذ ألقيت السلام

أخبار خانقة
مرام

أخبار مشوشة هنا وهناك، حولتني لعود محترق، جعلت الدقائق تمر في سأم، والوسواس يمارس دوره في نشر الخوف في غابات عقلي، فقد نما إلى مسمعي صوت بلبلة وضوضاء وجلبة، قادمًا من بيت جيراننا أم حسن، فثمة شجار مع ابنتهم قد وصل إلى حد الضرب، فهمت بعد ذلك أنه بسبب إصرارها على الزواج من شخص سيء الصيت.

تذكرت أنني لي قصة مشابهة، وتذكرت حين عاد أبي يحمل في جعبته نشرة أخبار كاملة عن وليد، بعدما سأل عنه الكثير، وأجابه الكثير بالكثير، واتضح أن وليد زير نساء متسكع يحتسي الخمر كما الماء، وله باع طويل في النصب والاحتيال.

الحياة حصالة فارغة، كلما حاولت ملأها بالحقيقة يتحالف معها الوسواس ضدي، انزويت وحيدة يأكل بعضي

بعضي والشك بات صنَّارة عالقة في قلبي، بينما جاءت تشاركني طاولتي المنفية "نادية" أختي، وأنا في توتر واضح، أتمتم بكلمات ملوثة بالضياع.

قالت نادية بحنو: أأحببتِه؟

قلت: حد الهذيان

قالت: منذ متى؟

قلت: لا يقاس الحب بعدد السنين، فها هو ذا وليد أحيا نبضي في لحظة

قالت: كيف قابلتِه دون علم أهلك؟

قلت: جاء مع أخته إلى الجامعة في نفس اليوم الذي ذهبت لاستخراج الشهادة وتوثيقها.

قالت: حسنًا فعلت إنك قابلتِه في مكان عام، فسمعته تصيب بالعدوى

تركتني نادية وعيناي جامدتان، لا تسفر عن شيء ولا تشي بشيء، في حالة توهان لا أعرف لها مخرجًا، وجاءت أمي تسير بطرف خفي، قالت: مرام حبيبتي

قلت بحنق: نعم

قالت: إنك لم تأكلي منذ أن سمعت ما سمعت؟

قلت: يبدو أنكم تريدون أن أكون عانسة مثل نادية، ولم أنتبه إلى أن نادية تقف بمحاذاة الباب، وقد شعرت بالألم والصدمة مما تفوهت به، وقالت غاضبة: أنت تستحقين مثل لاعب القمار هذا.

قلت: اخرسي.. وليد ليس كما تظنون، ولا يوجد رجل مشذب من كل عيب

شدتني نادية بكلتا يديها من كتفي بتعقل، وركزت نظراتها الغاضبة في أم عيني، وقالت: اسمعيني جيدًا، إذا كنت تعتقدين أننا أعداؤك فأنت حرة، ولكن اسألي نفسك هل كل الناس الذين سألهم أبي عن وليد كاذبون؟

قلت في إنكار تام: بالطبع كاذبون يريدون تشويه صورته، ثم لو أنه كذلك بالفعل فهو رجل ولا يعيبه شيء، بل أعد ذلك ميزة وليست مذمة في حقه، فماذا يعني أنه زير نساء، يعني أنه رجل صاحب خبرة وجاذبية، والنساء يلهثن خلفه، وأمثاله

يتقنون فن إغواء النساء بامتياز، ويذيبونهن بنظراتهم ولمساتهم الحارقة، لذلك هو مختلف ومختلف عنكم بالذات لأنكم مكبلون بالتقاليد وأنا أعشق الرجل الذي يكسر التقاليد.

قالت نادية: إنه لمن المؤسف حقًّا أن يخرج مثل هذا الهراء من فتاة متعلمة ومثقفة مثلك، الزواج شركة بين روحين، لا يبنى على الخداع، أنت بقرارك حرة ولكن تذكري أن من يلعب بالنار يا أخيتي تلفحه، وأن الفراشة التي تحوم حول وهج النار لا بد أن تسقط وتلفظ أنفاسها الأخيرة، أما وليد وأمثاله فهم بارعون في إظهار الثقة بالنفس، ويجيدون فن الحديث والكلام المعسول، ويعرفون كيف يداعبون الأنثى من دون حتى الاقتراب منها، فلهم ألسنة من لهب تسلع كالعقرب، وتلدغ كالأفعى.

سكتت برهة ثم قالت: لا يغرينك أنه أكثر خبرة من الرجال المهذبين ويعرف ما الذي يعجب المراهقة، والناضجة، والعزباء، والمتزوجة، ولا يغرينك الاعتناء بمظهره، وبتسريحة شعره، وبالعطر الذي يختاره، ولكن هذا كله لا يجعله يصلح لمواجهة مصاعب الحياة الزوجية وتحدياتها المختلفة.

أشحت بوجهي عنهم، وقد استغربوا دفاعي المستميت عنه مع أني لم قابله إلا مرة واحدة، فانصرفوا يائسين وتركوني أضيع بقطع الظلام، وأنبذ كل أهل الأرض مستسلمة للبكاء.

هاتفت وليد وطلبت لقاءه في الجامعة، وعندما جاء تحسس من صوتي المرتجف أن الأمر جلل.

قال: أخبريني ما بك؟ أحسست أن السماء تهاوت فوق رأسي حين سمعت صوتك يزمجر في الهاتف.

قلت: إن الروح التي حدثتك من قبل، ليست هي الروح التي تحدثك الآن.

قال: لِمَ تقولين هذا الكلام؟ ما الذي حدث؟

قلت: عندما تنتف ريش العصفور فأنت لا تسرق أجنحته فحسب، بل تسلبه سماء كاملة، وبعد أن تقطف زهرة من غصن، يعود الغصن كما كان، أما القلب فلا، كيف لك أن تتجرأ وتطلب يدي وأنت تعرف نفسك فارسًا محنكًا في عالم النساء والقمار والكأس.

هز رأسه جانبًا بصورة آلية دون أن يرد، وفي تضاريس وجهه غضب، فقلت: رد.. أراك تسمرت وأكل الخوف حواف لسانك.

أجاب مقتولًا: لست في مزاج يسمح للرد والصد والجدل، واستمر في صمته.

قلت: لم تؤجل المكاشفة؟ أتخاف على نفسك من الإحراج؟ لا أريد منك أي تفاصيل، فقط جئت أنهي ما بيننا، وحذارِ أن تقترب مني أو تطرق باب بيتنا ثانية.

عدت وبيدي أحمل خفيَّ حنين، أجلد نفسي وأجالدها، تغالطني وأغالطها، ألفيت نفسي في غرفتي وحيدة بحاجة للهرب، بحاجة لأن أغط بالنوم فلا أصحو، أغمض عيني بانتظام لعلي أتمسك بتلابيت الوسن قبل أن يغلبني الكرى.

وعند الساعة السابعة، أتى المساء متدثرًا بالسواد وصحوت على صوت الحاجة أم وليد يصدح في بيتنا، وكان الإجهاد ظاهرًا على سحنتها الباهتة، وأثار دمع قريب تبلل رموشها، وهي تقسم أغلظ الأيمان أن وليد بريء من هذه الشائعات، فثمة مشاكل قديمة بينه وبين من سألهم أبي، جعلتهم يتهمونه ظلمًا بأبشع

الجرائم، ثم قالت: هل يعقل أن شخصًا يجمع لوحده صفات السوء كلها، ثم بكت وهي تصف كيف ربتهم وسهرت وعلمت وكافحت كي يصلوا إلى ماوصلوا إليه الآن.

دخلت أسلم عليها بناء على طلب أمي، ومن دون مقدمات قفزت تحتضنني، وقالت وليد بريء وأنا لا أخدعك.

قال أبي: أنا سأعطيها لك يا حاجة، هي أمانة عندك

قالت: أضعها في بؤبؤ العين وسويداء القلب، التفتت إليَّ قائلة: ابتسمي وامسحي كسرات دمعك على وجهك العذب.

وفي اليوم التالي جاء وليد وأخذني إلى حديقة غنَّاء فيحاء معشوشبة، أرض بكر لم تطأها الشمس من ظلها الكثيف الظليل، ذات أزهار ندية وأشجار مخملية، وصعدنا على تل به الكثير من النخيل الباسق، وهناك التقطنا صورًا رائعة.

قال: أنا رجل خبرت الدنيا وعشت فيها طولًا وعرضًا، ولكن أريدك أن تأخذيني الهوينى، وتحلقي بي على مهل، لأني على يديك أريد أن أكون إنسانًا آخر، علميني كما تعلمين طفلًا كيف يحبو، علميني كيف أتهجى حبك بشفتين

تشتعلان شغفًا، وكيف أرتوي من شهدك ساعة ظمأ أو أقتات همسك حين جدب، أمارس فيك طفولة عاشق يرقص الغرام على أطراف قلبه.

دعيني أغرق في هطولك، وأستشعر عواصف أنفاسي تتغلغل في حناياك، أحتسيك قارورة عشق وأستنشق غواية أنوثتك وأهوى احتراقي على رصيف حبك، كإحدى سجائري التي أدمنتُ تعاطيها لتسكتي جوع وريدي بحلوى أجزائك.

قلت وقد غاصت كلماته في قلبي وحرك سواكني: عجيب أمر حرفك يا سيدي، يحرقني بلا لهب، ويدخلني جنتك على رؤوس أصابعي

قال وهو يثبت عينيه على عيني: سترين الكثير من الناس، ولن تري أحدًا مثلي، فأنا الوحيد الذي يجيد اثنتين.. قراءة الشعر وعينيك

قلت: أبهرتني حين وقفت كرمح لا ينثني، وأصررت أن تدافع عن نفسك وتبرئ ساحتك

قال: ذلك لأنك تستحقين القتال!

قلت: ألا تخشى الهزيمة؟

قال: الموت بين عينيك حياة

قلت: وحبيباتك العطاش أين مصيرهن؟

قال: كلهن لحظة وأنت العمر، أعاهدك أن أحمل بين دفتي صدري اسمك واسمك فقط، وإن كنت أغار عليك حتى من اسمك، ومن ثوبك الذي ترتدينه وحلمك الذي لم أكن معك فيه.

قلت: مولعة بالقراءة أنا، ولكنك كتابٌ غير كل الكتب

قال: وأنت مخطوطة ربانية لم تلمسها أنامل قارئ من قبل، تنبعث منها رائحة الحكايا المثيرة كما ينبعث العبير من زجاجة عطر لم يحكم أغلاقها.

قلت: أحببتك.. وأصبحت بالنسبة لي الطبعة الأولى والأخيرة

قال: وأنت أصبحت النسخة الوحيدة.

شعرت يومها أني أولد من جديد، نقلني حبه من دائرة السواد إلى براح الحب، فسرت معه كالمجاذيب، مشيت أحلم بأن تجمعنا أرض وحدنا، لا ندري متى يحل الليل فيها ولا متى يطلع النهار، وتمنيت أن تكون بداية ليس لها نهاية.

لحظة ضعف
مهند

قرأت المطوية التعريفية لهذا البلد الجميل، ولكن حين رأيتها وجدت أن أي تعريف لها هو تعريف مخل، فـ «تونس» آية من الجمال والفخامة والرقي، تجمع بين عبق الماضي ونكهة الحاضر، شوراع العاصمة ضيقة ولكنها مزدانة بالأشجار والخضرة، تسمع فيها هديل الحمام وشدو الطير ونغم العصافير وصيحات الهدهد، وكثير من منازلها مبني وفق الطراز الأندلسي الجميل، أما ريفها فيمتاز بطيب الهواء وصفاء الماء، مما قلل انتشار الأمراض وعموم الصحة وطول الاعمار، فرأيت بعض أهلها في الريف قد جاوز المئة، وما ذهب لعيادة وما لقى طبيبًا، وإذا أقبل الليل وتدثر بثوبه اللامع وقمره المستدير، وتدلت قناديله على أنحائه، زحف المزارعون إلى بيوتهم في قيعان الأودية، وسمعت ثغاء الغنم، وخوار الأبقار، وأصوات الرعاة.

يقع شعاع الشمس على السفوح الخضراء كما تقع المجوهرات على صدر الحسناء، ومشهد خرير ماء الساقية الذي يصب في الغدير لا يصدق، كأن الفضة أذيبت في أحواض من البلور والمرمر، فلا يسمع إلا انسياب الماء على الصخور الملساء، مع هفيف نسيم هو أهنأ من البشرى، وأرق من العافية.

وفي الفندق سمعت قعقعة الصحون والأواني تقترب من غرفتي، فطرقت العاملة الباب، ولما فتحت لها كلمتني بالفرنسية، فقلت لها من الممكن أن تكلميني بالعربية فأنا من العراق، فرحبت بي بكل ما تستطيع ترحابًا يشبه ترحاب المصريين اللطفاء، وأصرت بشدة أن أزورهم في البيت، وأخبرتني بأن عائلتها وإخوانها سيفرحون بوجود شخص من العراق في ضيافتهم، يقاسمهم طبق "الكسكسي" الشهير في قائمة طعام التوانسة.

وفي صباح يوم مشرق، عدت وقت الظهيرة من المهرجان، فخيم فوق رأسي أحدهم وأنا أتناول الحلويات في مطعم الفندق، رفعت رأسي فإذا بي أرى نفس الفتاة التي رأيناها بشرم الشيخ أنا ومرام.

فقالت: أتسمح لي بالجلوس يا عم؟

قالت ضاحكًا: أهكذا ترينني؟ عجوزًا كعمك يا فتاة؟

قالت: أنا جائعة وسأطلب طعامًا هل تأكل معي؟

قلت: مع أني تناولت الغداء، لكني لن أرفض عزومتك أبداً

قطع الحديث نادل المطعم، فأتى بمائدة مدت جدارًا فاصلًا بيننا، أو جسرًا ما سيربطنا، كي أقول لها ما شئت، أو أفهم منها سر اللقاء.

قلت: أتدرين أني لم أتعرف على اسمك حتى الآن؟

قالت: رهف

قلت: سبحان الله.. لزوجتي ابنة جميلة اسمها مثل اسمك

قالت ضاحكة: لا توجد رهف جميلة غير واحدة.. هي أنا

ابتسمت عيناها ونبضت كقلب وقلت: غرور إذن؟

قالت: ثقة بالنفس

فتاة نفخ الجمال بروحها، كحديقة أطل عليها الربيع، تأخذك عنوة بكلامها العذب فتذوب حروفها في فمك

الرطب وتدغدغ أنفك رائحة الصفصاف، جعلتني عيناها أمد بصري في آفاق لم تعتدها عيناي، وعطرها الزكي جعلني أتنفس هواء لم أتنفس مثله من قبل.

لقد اشرأب عنقي إلى حرفها الذي يتراقص في شفتيها وهي تحكي عن طموحاتها، أصغيت لها فحسب فحينما تتحدث الروح للروح يظل اللسان صامتًا.

وفي غمرة خيالاتي هوى صوت أجش كأنه وخزني بشوكة، إنه صوت النادل جاء يقدم العصير، قلت: هل ما زلت مصرة بعد هذه العزومة أن تناديني يا عم؟

قالت: هل تتضايق؟

قلت: تذكرني هذه الكلمة بما أريد نسيانه

قالت: حتى إذا كان شعرك المغزول بسفح الثلج يزيد من وسامتك

قلت: لا أعرف لكني أشعر كلما شابت شعرة.. احترق شيء من طفولتي

ضحكت واستأنفت تتحدث عن الطفولة كحمامة تهز صدري بأجنحة لاهية، بينما تأصل القلق في أوردتي

واقتحم معاقلي، سرحت مليًا وتساءلت في نفسي لماذا الدنيا لا تقر لي بالهدوء ول اتمنحني الاتزان؟ تعسًا لهذه الدنيا لا تعرف الحياد، توقد في داخلي مشاعر كنت أظنها قد خبت.

عدت إلى غرفتي أحمل في صدري صبائب الألم، سرت متثاقل الخطا إلى مكان أعتزل به كي أفهم ماذا حدث؟ فثمة شيء يحدثني للاقتراب منها، يحرضني على السفر في أنوثتها دون وجل، هل لأن في عينيها نعومة الغواية ودهشة القنص، أم أن دقات قلبي المتصاعدة تتوق لامرأة تأكل أحزانه كلها بضحكتها، بابتسامتها المتلألئة في صدفة فمها، أم أني لم أغلق نوافذي بإحكام، لذلك جعلها تستقبل مشاعر مراهقة تريد أن تروي مساحة من أرض بور.

لم يكن المكان الذي رأيتك
مجرد مكان
ولم يكن الزمان الذي احتضن لهفتي
مجرد زمان
ولم تكن أنت وهمًا.. ولا خيالا

ولم تكن مستحيلًا.. ولا محالا
بل كنت حقيقة.. لمستها
وشمعة حب أنرتها
كنت بحرًا من الأشواق يجذبني
وقلب طفل يعذبني
وكنت قضبانًا تحبسني
وعطر ورد يسحبني
كنت كل هذه المتناقضات
وأكثر من كل الكلمات
كنتِ

وبينما كنت في بهو الفندق دخلت فتاتان تلهثان، صاحت إحداهن عاليًا: "الحقونا يا ناس" نزيلة عندكم قد دهستها سيارة، وفجأة صمت كل شيء.. بما في ذلك قلبي.

إنها رهف.. سال دمها سخينًا، إثر إصابتها في الركبة والقدم، أسعفناها على عجل ولففنا الجرح بالشاش، توجهنا إلى المستشفى وقد انخرطت ببكاء حار والألم ينخرها نخرًا،

وبعد يومين خرجت من المستشفى وأتيت بها إلى الفندق، أسندتها واتكأت وأنا أنظر إليها وكأنها بركان أتمنى أن يغمرني بحممه، فأعاود الهرب، وأستعيد قواي، خشية أن تتلاشى عزيمتي حين يدق لمعان عينيها اسوداد أملي، حتى استلقت على السرير ونامت.

خرجت بسرعة وأغلقت الباب أتلمس دربي في أوحال حقول لم تحرث، وفي عقلي جمهرة من الأُسد تطاردني، تريد تمزيقي، أفكار وأفكار وأفكار، حاولت طردها ولكن كانت أقوى مني، ولم يغرب عن ذهني وجه رهف وضياؤه الذي بدا كالشعب المرجانية يتلألأ في أعماق بحر مظلم، لوحة من نار، وهالة من نور، تجرني إليها جرًّا.

أخذت قسطًا من النوم بعد يوم شاق، وسرعان ما أسلم الليل نفسه للفجر وشعشعت خيوط الصباح، فاستيقظت على طرقات متقطعة على باب الغرفة، فتحت الباب فركت عينيَّ فلم أجد سواها، والساعة تقترب من التاسعة صباحا، قلت: ما بك؟ هل يوجعك الجرح؟

قالت ويهمي دمعها صامتًا: نعم

قلت وأنا ألمس أطراف أصابعها: جائع صوتي لصوتك، أشتاق حلو كلامك حتى تستجديه أُذناي، فانتابها خجل وخوف لذيذ من لمسة يدي، فحين تخجل المرأة تفوح عطرًا لا يخطئه أنف الرجل.

قالت وقد ذرفت عيناها كالورد ماءً عذبًا: لو لم أكن أثق بك لخشيت أن تسرق أصابعي

فانتبهت إلى أني أضغط على يديها بقوة، وقلت: أسرق رائحة الحب من ورد يديك، ماذا أفعل؟ لقد ضبطت نفسي متلبسًا بحبك أبحث عن رغيف حنان، خذي عصافير يدي، لتتسكع في فضاءاتك، وترفرف في ملكوت حقلك، وتبني لها أعشاشًا من حرير لطفك، خذي قيثارة صدري صادحة تتموسق أوتارها على بصماتك، فليس كـــمثلك أنثى تستحق أن أصلبني لأجلها على سارية انتظارٍ باردة.

قالت: أيها القادم من مسقط رأسي ومسقط قلبي، أطلق سراحي ولا تجهز عليَّ، وإن كنت أنبش في تربة الحب

إلا أن كل الذين احتضنتهم روحي كانوا كالعصافير، نقروا جدار القلب وطاروا، أجرحٌ في القدم وجرحٌ في القلب أيضاً؟

قلت: قلوبنا هي الحقيقة هنا، دعيها تركض في حقولك وتغتسل في سواقيك، اصغي بخشوع لهديل فؤادي ومشاعري الحيّة الفوّارة، وستعلمين كيف سكنت أقبية روحي، وتركتني في احتراق لعلّي ألثم منك وعدًا يبقيني على قيد الحياة

قالت وهي تمط الكلمات: كيف ترتضي لي أن أطعن المرأة التي احتميت بها؟ وأنت كيف ستثق بخائنة؟

تقطعت الكلمات بين شفتيَّ وابتعلني الصمت، وفي كل لحظة صمت تحترق من عمري شمعة، وتسقط من حياتي وردة.

وقالت: أنا منذ أن همعت عيناك علمت بحيرتك، وأنصتُّ لأزيز وجدانك، تأملتك وأنت تغالب زفرة تجيش فيك.

قلت: أبحث عن حب يسافر في دمي، كسرب حمام يحط على أفنان أَضلعي، عن حب يدرأ الجفاف عن مراعي قلبي، ويعيد ترتيب فسيفساء روحي، عن حب يمنح الظمآن لعاعة أملٍ بالارتواء، لقلب قتله الحرمان على حواف النبع.

وأنت يا رهف قد رسمت من نزيف الروح جنة، كأنك عوض الانتظار الطويل وصدق الرؤيا، فحين أنظر إلى عينيك أعلم أن بقايا السموات ما تزال عالقة في أديم الأرض، أنت متسع من الأنوثة والسحر، أمشاج غواية أنت ثورة لم تدق بعد ناقوس التمرد.

قالت: بيني وبينك لغة لم يتحدث بها عاشقان من قبل، كوكب أنت وغيمات نداك تعشقها التربة، لا أنكر هذا ولكنه صعب، أرجو أن تأخذ الأمر على محل الجد

قلت: ولم لا تأخذينه أنت على محمل الوجد

قالت: نحن بحران لا يلتقيان

افترسني غضب شديد، وقلت: لا يوجد مستحيلٌ، حسنًا لو وافقت زوجتي هل تأذنين؟ أم ان قدري كالسحاب يشتت شمله ليسقي من فيض انهماره نبتة.

قالت: الآن عرفت لماذا تعشق الإخراج، ذلك لأنك تحب السيطرة وتتقن أدوار البطولة

قلت ويدي في يدها: بعض الهوى ينسل رهيفًا رهيفًا يستوطنك وترضى، بل تكون ممتنًا حد البكاء،

اسمعيني جيدًا أرجوك، سأسافر إلى بغداد، عديني أن نلتقي ثانية؟

قالت: سأزورك في بغداد، ولكل حادث حديث

كوني لي حبيبتي

ولو ليوم واحد

أستنشق فيه الهواء

لأعيد الحياة إلى رئتي

وللقلب دفق الدماء

كوني لي قبل ذبول المنى

قبل نزيف الشيب ورحيل الأوفياء

فليس في دنياي شمس

توقد في روحي الأضواء

فتاء تأنيثك سيدتي لا تهدأ

تأسرني تقطعني أشلاء

كوني لي حبيبتي

ولو ليوم واحد

ففتيل أيامي يابس

على فراش الانطفاء
وأعتى رجالات الكون
بين يدي امرأة مثلك
لا يريد سوى احتماء
اختباء.. ارتواء
دواءً ينسيه أيام الشقاء
ورجاءً.. يأخذه من أوجاع الأرض
إلى رحاب السماء
أوقفي الطرق يا حبيبتي
فوق مسامير الألم
وضعي حدًا لهذا العناء
كوني جحيمي وجنتي
وازرعي الورد في طريق محبتي
كوني حبيبتي كل الفصول
كل حروف الهجاء
كوني دثاري وقت زخات المطر
كوني الهناء

كوني لهيبي وموقدي
كوني لي إلى الأبد
عانقيني.. وأشعلي بركان صدري
فعمر كل العاشقين شتاء

ها هي الأيام تزرع في خاطري حكاية، تنبض بالدفء والطيش والطفولة، دقائق كأنها براعم أنضجناها، وألهبناها، سكبنا في ثوانيها العبير واللون والظل.

لقد كانت تونس سخية للغاية، أشعلت في مشاعرنا ثورة، وحررتنا من عقدة الخجل فتحدثنا في الحب حتى جف اللعاب، والعراقية حين تحب تتوهج مثل النجوم، وفوق كفيها تنام كل غابات الأرانب... وفي بواكير الصباح قمت من نومي فزعًا، ومددت يدي إلى المنبه لأسكت صوت جرسه المبحوح، حملت حقائبي وسافرت إلى الوطن، وأحمل في أقراص دمي سرًا، وزهوًا خفيًّا.

فيلم قصير
مرام

الرحيل هو أقصى أنواع الوجع، يلوك القلب ويطحن في رحى الذكريات، وعندما يرحل الأحبة يعلقون على جدران البيت حنين أناس قاسمونا كل شيء حتى أنفاسنا، فتصبح أصغر الأشياء تذكرنا بهم، ثيابهم، عطورهم، الأماكن التي يجلسون بها، وحتى أسوء عاداتهم.

إنه الغياب يخنق فينا اللهفة، ويقتل الحلم، يغتال الفرح، يبعثر الأمل، يغير حياتنا، ويعيد تركيبتنا، يحيلنا نصف أحياء ونصف أموات، كشمعة مطفأة ذاب فتيلها، وخبت نارها، ولم يبق منها إلا فتات دخان، يرسم على شفاهنا ابتسامة شاحبة، كي لا يهرب الأخرون من كآبتنا، فكل الأشياء تستمر بعد رحيل من نحبهم عدا الشعور بالحياة.

لقد مات والداي في حادث سير مروع، شقَّا جيوب الروح وارتحلا، وضاعَ بعدهم وفي آثارهم قَلبي، وقد قيل في الأدب، من مات أبوه جاع، ومن ماتت أمه ضاع، وأنا شعرت بالاثنين، وأمسيت كالأطفال أشتاق لرائحتهما على ما اعتدت من فرط الحنين، أتمتم بأنين وكأني أعانق الأصوات التي تضج في البيت، أصوات الجدل والضحك والهمسات، حتى أصوات أقدامهم التي كانت تشعرني بالوجود.

في آخر أيام العزاء لمحت نادية حاضرة ملء الروح ورحابة المدى، وهي تتحاشى الالتقاء بي ولو بالنظر، فنحن لم نتحادث منذ ثماني سنوات، تلك الناعمة في بساطتها، والحازمة في قراراتها، قد وضعت لي خطوطًا حمراء لا أتعداها، اشتقت اليها، وفي قانون الاشتياق لا يسمح لنا باختيار وقت الحنين، ولكن أنظار الجالسات في العزاء تلاحقني حين أرمقها من بعيد، همست بإذني مريم وهي تلملم أنفاسها، سامحيني ياحبيبتي، فقد كان كلامي الأخير بلا قلب.

قلت وفي حلقي حزمة من الأشواك: أنت بلا قلب أصلًا، لِمَ تغمسين حديدك المُحمَّى في بحيرة قلبي، وأنت تعلمين أنني لا أطيق أن يكون سيافي من أحب.

قالت: أي شيء تقولينه أنا أقبله، آسفة بكل ما في الكلمة من ضعف

قلت: لا تكترثي يا أخيتي، وفجأة وقبل أن أكمل كلامي دخلت نادية إلى الغرفة مرة أخرى حيث كنا جالسين وشعرت كأن العصافير قد غادرت أعشاشها وحطت تزقزق على غصون رأسي، جلست قليلًا فساد صمت رهيب، وخفت أن تتفوه بشيء ويتحول الكلام إلى عتاب مر، لا أخافها بقدر ما يرعبني الحق الذي عندها، والثقة التي تتحدث بها كأنها إنسان لا يخطئ.

اضطررت للعودة مع مهند، الذي حاول أن ينزعي مما أنا فيه فأقنعني وصباح وزوجها الدكتور وائل، أن أذهب معهم لمهرجان عرض أفلام مشاريع التخرج في أكاديمية الفنون، وبالفعل عرضت أفلام شتى، وسيناريوهات مدهشة، كأنها لمحترفين، ما عدا بعضها التي خنقته قلة الإمكانيات.

عرض أحد الطلبة فيلمًا قصيرًا، حمل عنوانًا لافتًا "هليكوبتر"، بدأ بأجواء ملبدة بالغبار أثارت عندي الحساسية، فصرت أسعل كثيرًا، سحب شاحبة، وصفرة وكدرة تلون السماء، وأزيز الطائرات تحمل الموت إلى كل مكان، مثقلة بقنابل الوزن الثقيل وكأنها صنعت خصيصًا لقتل الأطفال، عالم من الجنون والدماء المنتشرة تلطخ هجيع الليل الأسود.

انفجر البارود المقذوف في قلب ذاكرتي، وذهبت حيث كنا صغارًا نخترع الحرب ونستدعي السلام وقتما نشاء، ننهي اللعبة ويذهب كلٌّ إلى حاله، ولكن اليوم ما عادت الحرب لعبة، لقد تحول الوطن إلى كوكب محترق، وسماؤه تمطر دمًا وصواريخًا، وأرضه تتفجر بالقنابل والألغام، فالموت في بلدي حي يرزق، طليق يعبث بالطرقات يوزع المنايا بالمجان.

عشرات الصور المتلاحقة تتعاقب كشريط سينمائي خلف أجفاني، فتذكرت حين استيقظ البغداديون على حادثة اقشعرت منها الأبدان، فقد أقدمت إحدى العصابات على خطف طفل، وبعد أن طلبوا من والده إحضار مبلغ الفدية، قام الوالد ببيع كل ما يملك واستدان كذلك، وذهب إلى

العصابة، وقدَّم لهم مبلغ الفدية، وقاموا بتقديم الغداء له، وكان عبارة عن أرز عليه لحم، وبعد أن أكل الوالد شكرهم، وقال لهم سلمتكم المبلغ، سلِّموني الآن ابني، فقالوا له: لقد استلمته، قال متى وكيف؟ فأجابوه: إنَّ اللحم الذي أكلته الآن هو ابنك !!! وجُنَّ هذا الرجل حتي مات.

جز الحزن صدري وتذكرت إحدى الليالي السوداء، التي أمطرنا فيها بوابل من رصاص، وتحول البيت إلى ثكنة رعب، إلى غربال من الرصاص، فلم يسلم منه شيء، فهربنا فزعين نحمل الورطة ذبيحة على أكتافنا، فأوصلوني إلى بيت أهلي بينما انطلق وليد وأمه إلى بيت أقاربهم.

أفهمنا وليد أن هذه العصابة هي إحدى العصابات الطائفية التي تذبح الناس على الهوية، وما لبثت حتى أزاحت الأيام ستائر السواد عن عيني وأدركت الحقيقة، واكتشفت أن الذي حسبته نهرًا لم يكن أكثر من ساقية صغيرة من الوحل العكر.

ففي صبيحة اليوم الذي تعرضنا فيه للهجوم قدمت ثلة من عشيرة شهيرة لها احترامها في العراق إلى بيت أهلي يريدون الثأر من وليد في قضية شرف.

وجم الجميع من هول ما حدث، ولم تمض على الحادثة أيامًا حتى استدعتني المحكمة لأستلم ورقة طلاقي من وليد، وما هون عليَّ مصيبتي أن ابنتي معي.

ولكن الغدر أغمق من عتمة الليل، ففي يوم ملبد بالغيوم خرجت مع والدتي بمدينة المنصور، وفجأة توقفت ثلاثة سيارات سوداء من ذوات الدفع الرباعي، نزل منها كتيبة من المسلحين وتعرضوا لنا بالضرب والشتائم وخطفوا طفلتي من بين يدي على مرأى من الناس ومسمع منهم، فقمت أصرخ وأبكي وأستنجد حتى بح صوتي ولم يتدخل أحد، فقد كان صوت الرصاص أعلى، وكان المشهد أقسى، فوق كل وصف وأكبر من كل الكلمات.

مسكين يا قلبي مكتوب أن تحرق مرتين، مرة حين خطفت رهف ومرة حين علمت أن من خطفها هو وليد، الذي خنق فرحتي بكفه الخشنة وفتتها بأصابعه الثقيلة، أقضي السنوات تلو السنوات دون ابنتي، أنظر إلى ساقية الزمن تدور في الفراغ، يقتات على قلبي الحزن، فلا العقل يرضى النسيان ولا الجسد يرضى الحياة ولا القلب يقدر أن يموت.

انتهى الفيلم وصفقت مع الحاضرين وأنا أبكي بحرقة

وأصرخ بهستيريا لا تتوقف، وأحرث سمائي بكثير من الأسئلة التي ليس لها جواب وليس فيها ثمر.

ضجيج يدكني كلما تذكرت أني تزوجت من هذا الوليد، ينهشني الندم حين أتذكر كيف سبحت في أفلاك عينيه، وطفت في مداراتها، ولم أنتبه إلى أن في بريقها مستنقعًا من الوحل والأفاعي، وأنه مزيف مثل مآتم الأثرياء، ندمت على أنني بددت حدسي، وكذَّبت نصح المحبين، وندمت حين تجاهلت صوتًا داخليًا يخبرني أنه من أنصاف الرجال وأن الفارس الذي أتمناه لم يأت بعد.

الحزن هل يكتسب؟ لا أظن.. الحزن يتوارثه العراقيون في جيناتهم، اعتدنا الجلوس على أرصفته نسمع نواح الخطاء، ينهكنا حتى صرنا نتنفس بكاء، يلتقمنا بفمه، ونسبح في شراييننه وفي محيط دمه مثل يونس.

أجلس كالبلهاء فاغرة فاهي ولا أفهم ما يحدث؟ قلب يُحصد بمنجل الفراق، ورأس يئز بالأسئلة، أملأ جرار الألم وأنا أصارع على ابنتي صراع الفيلة، أقاوم الركوع مهما حاولوا تركيعي، مهما التحمت بخيل من غير لجام، أو نازلت جيشًا عرمرمًا لا يخش سفك الدم.

لحظة هروب وليد

لم يمر على عيد ميلاد رهف الأول أيامٌ، حتى صواعق القدر الهادرة ردمت نبض القلب وحدث ما لم يكن بالحسبان، فقد وجدت في باحة بيتنا «ظرفًا أبيضًا» بداخله رصاصة ورسالة تهديد، لا أعرف بالضبط مِن مَن؟ فقد اختلط الحابل بالنابل، في زمن لا يعرف فيه العدو من الصديق.

اختل الكون من حولي، وصار يبابًا، ولم أخرج من البيت ساعتها، ولم أبرح مكاني، حتى أتى المساء ويا ليته لم يأت، فقد رجم الأوباش بيتنا فيه بالرصاص من كل ناحية، فتكسر الزجاج ودكت الأسقف الثانوية، وانخلع الباب الرئيسي ولم يكفوا أيديهم حتى بات كأعجاز نخل خاوية.

أخذنا بعضنا وذهبنا إلى بيت خالتي ريثما نجد منفذًا للهروب، وأصرت مرام أن تذهب ورهف إلى بيت أهلها،

وما هي إلا بضعة أيام حتى عرفت أن الأمر جلل، وأني أمام قرارين، أحلاهما مر، إما البقاء لأواجه الموت، وإما أن أطلق مرام وأهرب بطفلتي، فاخترت الثاني لأني لا أريد أن أدخل مرام بمشاكلي وأجعلها تدفع ثمن أخطائي، فإن هربت معي، فسوف يلاقي أهلها حتمًا عقوبة قاسية ممن يطاردوني.

طلقت مرام، وأخذت طفلتي رغمًا عن إرادتها، ومشاعري تميز من الغيظ لأني لم أستطع التفسير، لم أستطع أن أبرئ ساحتي أمامها، لم أستطع فعل أي شيء سوى الهرب.

بين زفرة وشقهة يتألق الوجع في حناياي، يسري كالموت البطيء ويشحب لون الحياة، يا لها من طعنة قاسية تكلل مشوار العمر، راح كل شيء وخسرت من أحب إلى الأبد، وأضحت العودة إلى بلدي أملًا مستحيلًا.

لقد تركنا كل شيء وأدرنا ظهورنا لكل شيء، تركت للوطن عطوره، رائحة التراب بعد المطر، ورائحة الصفصاف التي أحبها، ورائحة الأزقة في المدن العريقة، لأعيش رجلًا بلا رائحة.

حطت رحالنا في الإمارات حيث داليا، حيث يجب أن نبدأ من الصفر، أنظر إلى وجه رهف وأتحسر، لا شيء يعلو كعبًا على الألم، أنظر إلى وجه رهف فأتخيل مرام وقد كبلتها صيحات الأنين، وحيدة تبحث في الزوايا عن بصيص يخفف عنها الفراق.

لم تمر إلا سويعات، حتى هوت والدتي على الأرض مغشيًّا عليها، فما حدث كان شديدًا، والصدمة لم تكن هينة، وفي المستشفى طمأننا الطبيب أن سبب الإغماء هو ارتفاع ضغط الدم، رن هاتف داليا التي ذهبت لدفع حساب المستشفى وتركته معي، «أحمد يتصل بك»، لم أرد، وحينما عادت داليا أخبرتها أن أحمد يتصل بها مستفهمًا من يكون. فلم ترد، وقد عذرتها لأن الموقف لا يحتمل السين والجيم.

في اليوم التالي.. بعد أن هدأت العاصفة وسرى الدم في العروق، طلبت مني داليا أن نتحدث على انفراد، وصبت الماء الحار فوق رأسي حين أخبرتني أنها متزوجة من أحمد، فرمقتها بغضب ولم أتخيل أن اليرقة خرجت من شرنقتها وأصبحت فراشة.

قالت داليا: تزوجته على سنة الله ورسوله يا وليد، لا داعي لهذه النظرات، فقد بلغت بي رحلة الحياة مبلغها، وأضناني التعب والسفر وكلني الجهد وطول السهر، وواصلت آمالي وقد انقسم بها طريقي إلى سبيلين: إما أنا وإما الطوفان، فاخترت أناي.

قلت: ستموت أمك لو علمت بهذا الامر

قالت: سأخبرها بالتدريج، لا تقلق

نثرت ما في جمجمتي من أفكار، وسقت خلايا الذاكرة إلى مكان سحيق، أقلب أوراق الماضي وسجلات الحياة، ومذكرات النساء اللواتي جعلتهن يفرون من الأمل، وتركتهن يعشن حائرات مثل مرام، بلا زوج ولا طفل ولا أمنيات.

تخبطت في كم الأفكار المحتشدة، وشعرت بشتات ما بعده شتات، فقد ضيقت الأيام خناقها ومسكتني من ياقتي وسحبتني إلى خارج الوعي، تلبسني الصمت وأنا أرفرف بحركة شبيهة بمن يلفظ أنفاسه، حركة حياة من جسد ميت.

طعم الثلج وطعم النار
مهند

خسرت أمي أختها الوحيدة في الحياة، أما مرام فقد نهشها الحزن مرة أخرى حتى أصبحت طوفان بكاء، هاتفتني سمر معزية، وطلبت مني أن أزوها في البيت، وحينما ذهبت حملت معي هدية، فقابلتني بترحاب وفير، وقالت: أهذي الهدية لي؟

قلت: جئتك بها من تونس الخضراء

قالت: أخجلني ذوقك الرفيع

قلت: ما دمت لم أمارس السياسة، فإن فِيَّ شيئًا من أمل.

قهقهت كينابيع الماء، وقالت: خفة دمك ليس لها نظير

قلت: أدفع أحزاني بالبهجة، علها تزيل كدري

قالت: وأنا كذلك

قلت: هل تصدقين أنك اليوم تكرمت بزيارتي في المنام، ولكنك كنت تعتبين عليَّ، وفي حضنك طفل صغير، سألتك من يكون؟ فأجبتِني: ابني.

قالت: ابنك أم ابني لم أفهم

قلت: ابنك

أطرقت رأسها وقد حبست جريان الدمع بسد قوي، وقالت: ألم أخبرك من قبل أنني كنت متزوجة؟

قلت متعجبًا: سمر إنك تمزحين؟ أليس كذلك؟

قالت: لا.. بالفعل كنت متزوجة من رجل في السر، وحملت منه طفلًا ولكنه لم يعترف به، وخشيت أن تكبر بطني ويفتضح أمري، فأسقطت الحمل لأحرق دمه مثلما أحرق دمي، وواصلت الحياة خلف ستائر الحزن حيث ترقد أيامي.

قلت: لديك ألم غائر.

قالت وفي عينيها برقت دمعة: ماذا أفعل، ليس أمامي سوى متابعة المسير حادية بلحن شجي، تتساقط عبره أنفاسي الحرَّى فتحرق أزهاره وروابيه.

قلت: رباه.. لقد تصدع جدار قلبي، والتهبت مواجعي بما سمعت، لكن أخبريني.. حين كويته بنفس النار وبذات الوجع، هل شفيتي غليلك؟

قالت: أبداً والله، ما كويت إلا نفسي، بل على العكس ابتسمت جراحي ابتسامة عريضة.

قلت: يبدو أن نار الانتقام تحرق صاحبها فحسب، عمومًا أنا آسف، لقد نكأت جرحًا دون أن أعلم

قالت: يا مهند، إن المرأة منا لا تشعر بأنها على قيد الحياة إلا حينما تصبح أمًّا

قلت: أنت تذكرينني بمرام، خسرت نصف عافيتها على فراق طفلتها.

قالت: ولِمَ لم تفكر فيك كما تفكر فيها؟ لِمَ لم تنجب لك طفلًا يرسم الفرحة على جدران قلبك؟

وقعَ كلام سمر عليَّ ثقيلًا، وكأني كنت على هاوية، فتحول كلامها إلى يد ضخمة دفعتني بقوة وسقطت، لقد حرثت بمعولها دفينًا حاولت نسيانه، لقد ذكرتني بما ذكرتها به بالضبط.

عدت إلى البيت وبدت مرام بحال أفضل، بعدما ذهبت إلى الأكاديمية وحضرت معنا مهرجان الفيلم القصير ومشاريع التخرج، وكانت قد انتهت للتو من أداء صلاة المغرب، نظرت إليَّ وأومأت أن تعال إلى حضني، ارتميت في حضنها وأنا أتشظى، فطفقت تخصف بكفها على صدري تمسحه: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، وقالت: ماذا اعتراك يا حبيبي؟ أضناك الانتظار؟ أتريد طفلًا يشعرك بالحياة؟

قلت: من قال أن الموت هروب الروح فقط؟ الانتظار أقسى من الموت، خلق الرجال من دم ولحم أيضًا يا مرام.

قالت: إن لم أستطع تلبية ما تريد، حرام عليَّ أن أرفض من أخرى أن تلبيه لك، تزوج يا مهند، ولو شئت أختار عروسك بنفسي سأفعل، فانفجرت بالبكاء، واحتضنتها بقوة، وشعرت بطعم الثلج وطعم النار.

الصندوق الأسود
مرام

سرى فيض غير معهود من الحديث مع الدكتور عبد الكريم: وذكر لي أن لكل واحد منا صناديق سوداء تتكدس بها الأحداث وتتوارى بداخلها الآلام، وتختبئ في جوانبها العيوب وتغلفها المشاعر، ولذلك يجب أن نكون على استعداد دائم للبحث عن هذه الصناديق والقيام بتفريغها أولًا بأول كي نقي أنفسنا شر المفاجآت.

فكل منا يحمل مزيجًا من الصناديق السوداء، وفى الحياة نتقابل ونتبادل الصناديق فقد يمتزج البعض والبعض يتوه والقليل منها يحتفظ بخصوصيته وسماته الخاصة، وحذرني من خطر تعبئة الصندوق بأكثر مما يحتمل فأن يكون هناك صندوق واحد مرتب وواضح المعالم أفضل بكثير من كثرة الصناديق المبعثرة، ثم قال أريدك في هذه الجلسة أن تعقدي

صلحًا مع صناديقك المتناقضة والمتصارعة، أفكار ومشاعر وأولويات.

قلت: كيف ذاك يا دكتور؟

قال: مثلًا من هو الشخص الذي هو أكثر أهمية في حياتك؟

قلت في تلعثم: رهف.. لا.. مهند.. بل صباح.. أمي.. مريم.. رهف رهف

قال: حسم الصراع متوقف على تحديد من هو الأهم، ارجوك اكتبي ذلك في ورقة الآن، مرتبة من الأهم فالمهم فالأقل أهمية.

فعلت ذلك وقبل أن يلتهمني الوقت رجعت من الطبيب، وامتطيت صهوة جديدة فلدي خارطة محددة، وسر جديد، فأسرعت أصحح أخطاء منسية، خلف باب أحكمت إغلاقه في نفسي، اقتحمته لأتحرر من كرب الأيام.

خلف باب زجاجي، لمصنع تفوح منه رائحة "أحماض أمينية"، تقف امرأة ناعمة مثل طيات الثوب لم أعرف من

قبل أني أحبها لهذا الحد، إنها أختي نادية، دخلت عليها المختبر أرمقها من بعيد، أحاول لفت انتباهها فانتبهت، وابتسمت وخلف ابتسامتها قنطار فضول وألف علامة استفهام.

احتضنتها بقوة وهمست في أذنيها وأنا أبكي: أمي.. أنت أمي

غمرتني فكأن الزمان غير الزمان، عاد بي حيث كنت صغيرة، بضفيرتين مجدولتين بشريطين أحمرين، وشعرت أن قلبي ذائب في أحضانها، كأنه لم يحتمل جمر عناقها، وأنا أنفض عن كاهلي كل أوجاع البشر، فنظرت إلى وجهها كأني أنظر إلى القمر، وعيناها لا تغمضان، وشفتاها لا تنبسان، لا تصدان ولا تردان، كأنهما غدير من غدران الحياة وسيل جارف من الوفاء، قالت: حبيبتي مرام، سعدت أيما سعادة بمقدمك وزيارتك مختبري المتواضع.

قلت: سامحيني يا نادية، لقد كنت عنيدة معك لم أرعوي ولم أعترف بخطئي، فثمة شعور سيطر عليَّ، ربما شيء من غرور.

قالت: لا عليك.. يبقى الياسمين أبيضًا مهما خانته الفصول

فتعانقنا، وكم هو عجيب أمر العناق يلملم أرواحًا ضاق بها المدى، قضينا معا اليوم كله، وذهبت معها إلى بيتها، واحتضنت أبناءها ماجد ورافد وهديل، وشممت فيهم عطر رهف، وعيني لا تكف عن الدموع، كأنها سماء تغمر حارات خدي بالمطر.

وقبيل المساء، عدت إلى مملكتي، وقد شعرت براحة نفسية رهيبة، بعدما كان ترهق جسدي أكيال الألم، ولكن أمراً ما قد حدث، حاولت نسيانه أو بالأحرى إخفاءه في الصندوق الأسود من جديد ولكني لم أستطع، كان لزامًا عليَّ إظهاره لأحظى بانتماء وسلام إلى زمان ومكان ووجود... لقد تنبهت إلى أن الإنجاب من مهند كان آخر اهتماماتي، لأنه جاء بالمرتبة الأخيرة في سلم الأولويات.

ورشة التمثيل
مهند

ستة أشهر مرت كلمح البصر، وأنا في نشوة حب لفتاة تورط القلب بها، وغيرت لون الشتاء في ملامحي وجعلتني أستعيد مواطن غربتي، أهاتفها كل يوم عشر مرات على الأقل، لأطمئن على كل تفصيلة من تفاصيل حياتها.

ذات مساء، انزويت في ركن هادئ بشارع خافت الضوء، اتصلت بها وفتحت نـوافـذي على ربيـعـها، فإذا بها تجلس في مقهى صيفي يعبق بآثار العطور وبقايا الأحاديث، أخبرتها أني أجلس إلى طاولة وأمامي سوسنة زاهية تشببها.

قلت: ليتني أمشي إليك بالمقل، فقد سئمت التنقل على الأقدام

قالت: كيف لي أن أخبرك بأني أشتاقك بين الثانية ونصفها

قلت: تشتاقك العين ولا تتسع أحداقي إلا لك، يا ليت لي ألف ذراع من الشوق كي أمدها إليك، أحبك بعفوية جعلت لـفوضى النبض في عروقي مذاقًا خاصًا..أحبك همسةً تغفو على شرفاتها أوائل أحلامي وتصحو على شفتيها نهايات عمري.

قالت: أثمل من سكر حرفك، ومن كلماتك الماطرة أعجن صلصال شغفي بك

باغتها بسؤال مزلزل: متى نتزوج؟

بهتت وقالت: هل وافقت زوجتك؟

قلت: وافقت وبشدة، وأخبرتني أنها ستخطب بنفسها أي فتاة أشير إليها

قالت: بالله عليك كيف تستطيع أن تتزوج على جوهرة مثلها، هنا في تونس ممنوع الزواج الثاني.

قلت: ما لي وتونس؟ أنا أريد اللجوء إلى عينيك فلماذا تمنعني تونس؟

ضحكت كالعصافير وقالت: أتراك على عجل؟

قلت: أريد أن أنعم بطفل يشبهك

قالت: هل فكرت كيف نتزوج، وأين؟ وأنت تعلم أن أمامي طريقًا طويلًا، ووالدي رجل مريض وأخشى أن يرحل ويتركني، وعمتي التي ربتني مترددة من هذا التقدم السريع في العلاقة.

وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت لعمل تمارين مشاهد ورشة التمثيل، وهناك تدرع الممثل بطل المسلسل بملامح صفراء تنبعث منها أسراب الكراهية، يفتح الباب بغضب وحنق، ويجد زوجته في سرير النوم مع رجل آخر، فيطلق عليها الرصاص.

كأن الرصاص نفذ إلى خاصرتي، فصرخت آآآه، لا.. لا أستطيع، وتركت الورشة راكضًا كأن أقدامي أقدام فهد مرقط، توجهت إلى الشارع، أبحث عن سيارتي وبالكاد رأيتها وقدتها سريعًا إلى عيادة الدكتور عبد الكريم.

انتظرته وملابسي المعروقة ترتعد، كأن صدري قنبلة موقوتة تكاد تنفجر في أي لحظة، وصل وتعجب من وجودي لوحدي فقال: هل السيدة مرام بخير؟

أجبته: لا تقلق هي بخير، ولكني أنا لست بخير، أشرت إلي قلبي وقلت: متألم هذا القلب لكنه صامد.

حاول تهدئتي بقطعة سكر، وكوب من الماء البارد، وراح يربت على كتفي ويقول: اهدأ.. اهدأ أستاذ مهند، كل شيء سيكون على ما يرام.

قلت وقد بلغ توتري مبلغه: لا أعرف من أين أبدأ الحكاية؟

قال: ابدأ متى تشاء ومن أي بداية تحب

قلت: قبل زواجي من مرام ارتبطت بفتاة أحببتها بجنون، موظفة في وزارة البترول، وتعرفت عليها عن طريق صديق لي يعمل هناك، ورشحها لي كي تكون شريكة حياتي، وبالفعل تزوجتها وبذلت الغالي والنفيس كي أسعدها، ولكن بعد أشهر معدودة من زواجنا، راودتني شكوك حول تأخرها عن البيت وخروجها المتكرر، إلى درجة أنها بدأت تخرج دون علمي، وذات يوم كنت جالسًا أمام التلفزيون، رن هاتفها فانتفضت كمن يجلس على عقرب.. وانطلقت مسرعة إلى المطبخ.

تتبعتها بخفية، أسترق السمع، وقلبي يعتصر من الشك، راقبت ضحكاتها الخائنة كجذع نخل بالٍ، طارت فوق رأسي غربان الشؤم وشعرت أن الدنيا أصبحت سوداء معتمة، وتساقطت عليَّ الأفكار والأسئلة دون جواب، لقد سمعتها تقول له تعال إلى البيت غدا حين يخرج زوجي إلى العمل.

في هذه الأثناء لم أزل أنظر ردة فعلها، تعبيرًا يرسم على ملامح وجهها، ولكن دونما جدوى، فكأن وجهها من خشب وعينيها واثقتان تغرقني في تيه شديد، تسمرت وكأنما ألقي على ظهري جبل، كيف لم أكتشف هذه الممثلة البارعة وأنا أعمل مخرجًا، ولدي خبرة في التقاط براعم الموهبة قبل أن تورق؟ تظاهرت أني منشغل بالقراءة، ووقفت بجانبي فاحسست بقلبي يخفق بقوة، خشيت أن تسمعه، فقلت في هدوء مفتعل: من اتصل بك؟

قالت: زميلتي في الشركة، تسألني هل أرغب في الاشتراك في الجمعية أم لا؟ فأخبرتها أني لا أحب الجمعيات.

انتظرت أن يشق النهار قشوره لأزيل عن مراياي ضباب

الشك، متى سيأتي إليها؟ ومتى ساعة اللقاء؟ طار غرابي من رأسي حين رمقت من بعيد، سيارة فارهة تحط رحالها أمام مدخل البيت ونزل منها فأر يروم الدخول إلى المصيدة في اشتهاء، تسللت إلى البيت خلسة، وسمعت أصوات مرح وانبساط مسموعة ولكن من أين؟ من غرفة نومي! ففتحت الباب ووجدتها بين أحضان عشيقها على سريري، انقدح الغضب في شرايين دمي فافرغت الرصاص عليهما دون وعي، وتجمهر الناس وتعالت الصيحات ولم أفكر بالهرب كأي جندي يفتخر ببندقيته ينظفها ويدندن، ثم جاءت الشرطة والإسعاف....

قال الدكتور: تفضل اشرب قليلًا من الماء.. وأكمل

قلت وأنا ألتقط أنفاسي: حكم علي بالسجن ثلاث سنوات في قضية غسل عار، ومضيت أحاول بعد انقضاء مدة الحكم أن أتأقلم مع الواقع، أعارض نفسي لاستعادة أناي، التي لم أستردها إلا بعد أن تزوجت بمرام.

قال الدكتور: إذا واجه كل إنسان منا أحداثًا سيئة سوف يشعر بالاستياء، وكلما تذكر ما مر به من إيذاء وألم تفجرت

بداخله مشاعر سلبية مدمرة لنفسه وكيانه، وقد نظن أن هذا الجرح أو الألم الذى عايشناه لن ينتهي تأثيره مهما مر الزمن، كونه محفوراً فى الذاكرة بمشاعر الغضب والإحساس بالانكسار.

قلت: بالضبط يا دكتور مستحيل أن انساه، يأكل ويشرب معي

قال: ولكن هذا غير صحيح، فحين تكون سيد أفكارك وعواطفك وردود أفعالك سوف تمتلك القدرة على رفض الأفكار والعواطف المزعجة، فلا تمنح أى سلطة لأى شخص أو حدث أو موقف عليك.

قلت: كيف؟

قال: عندما تمتلئ نفسك بالكراهية والغضب فإنك بذلك تسمم أفكارك وعواطفك وبالتالي تسمم عقلك وبدنك، وسيظهر هذا بالتأكيد على شكل مشاكل وصعوبات فى حياتك.

قلت: ولكن الناس لا تفكر هكذا!!!

قال: لا تفكر بالآخرين، ابدأ بنفسك واصفح، فعندما ترفض الصفح فأنت لا تعاقب الآخرين بل تعاقب نفسك، فمن أغضبك فقد هزمك، إن مشاعر الغضب والاستياء والإدانة تجاه الآخرين تضعفك وتستنزف طاقتك وتضيع عليك كل يوم فرصًا رائعة لتغيير حياتك للأفضل، لذا انفض اليوم عن نفسك تراب السنين وآلام الماضي وضمدها بالصفح والغفران، اغفر لكل شخص ولكل ذكرى ولكل موقف الآن بما تستطيع أن تقدمه لنفسك لتعويض كل ما ضيعته من سنين فى مقاساة الآلام والأحزان، فهذا المضيق الذي تعبره لن يدوم، ثمة محيط ينتظرك.

قلت: يا دكتور لكن هؤلاء دمروا حياتي !!!

قال: القرار لك... ما مضى فقد مضى والكل أخذ جزاءه ولن ترجع عقارب الساعة للوراء، وما تملكه هو اليوم "اليوم فقط" فحتى مستقبلك لا تعلم هل ستعيشه أم لا؟ وهل ستتاح لك هذه الفرصة لتصفح أم سيمر الوقت وتضيع فرصك؟ فلتكسب اليوم وتقرر أن تعيش سعيدًا وتصفح عن كل ما مضى فى حياتك، ولتبدأ بالصفح عن نفسك أولًا

لتستطيع أن تصفح عن الآخرين، وسأعطيك طريقة سهلة تساعدك على السلام الداخلي فى حياتك:

١- قبل النوم استرخ وهدئ عقلك وجوارحك

٢- ولا تفكر إلا فى الله ونعمائه (احصها فى عقلك) واستشعر كم أنت محظوظ بكل هذه النعم

٣- ثم ردد بحزم وهدوء وثقة هذه التأكيدات: "أنا أختار الصفح، وأعلن اليوم أنني أعفو عن فلان (اذكر اسم الشخص الذي أذاك أو جرحك) تمامًا وبحرية، وأنسى بصدق كل شئ متعلق بهذا الأمر، أنا حر الآن ولدى شعور رائع بالسكينة والهدوء والسلام.

ولكل الأحداث والمواقف التي حدثت بالماضى وآلمتك قل: "حان الوقت الآن لأعفو عن جميع الأشخاص والأشياء المؤلمة التى مرت فى حياتي، وقد عفوت اليوم بإرادتي الحرة عنهم جميعًا وأنا أقوم بذلك بكل حرية وسلام، وكلما تذكرت هذا الشخص ثانية قل: (أتمنى أن ينعم بالسلام)

وبتكرار هذه الجملة فى عقلك ستجد أن مشاعر الحنق تزول وتختفي، فعندما تعيش السلام والسعادة، ستجد هذه المشاعر أصبحت فى طي النسيان واختفت تمامًا.

وبالفعل طبقت التمرين أكثر من مرة، وأنا مستلق مغمض العينين، فوق سريري أتنفس بقوة، كأني ألفظ الحقد من صدري، ومع الوقت شعرت براحة عميقة لم أشعر بها من قبل، كأن الأوكسجين استوطن عروقي لأول مرة، فاتصلت بالدكتور وأخبرته بهذا التقدم، فقال:

رائع.. لقد كسرت الآن قيودك بعفوك، فلا تسجن نفسك فى ألمك ثانية "انتبه"، وصدقني لو فكرنا جميعًا دولًا وشعوبًا، ستنتهى كل الصراعات والحروب وتنقشع غيوم المشاكل، إذا ما عشنا حياة السلام وتغافرنا فى كل وقت ومهما اختلفنا واختلفت الظروف والأماكن والأحداث.

حسناء
وليد

استطاعت داليا أن تزرعني في الشركة التي تعمل بها، سائقًا لسيارة المدير الإقليمي، الأخ الأكبر لأحمد زوج داليا، وبدأت الأيام تكشف لي عن أمور كثيرة وأسرار كبيرة، فسألت داليا: كيف تعرفت على زوجة أحمد، وابنتيه السمراوتين؟

قالت: في أول مرة زرت بها أحمد، وتعرفت على زوجته وبنيته، كنت أريد تقديم المساعدة في تدريس "ديما ودارين" مادة اللغة الإنكليزية، لكني لمحت أن ثمة حاجزًا بينه وبين زوجته، أخبرني أنها ابنة عمه ولم يحبها يومًا وقد فرضت التقاليد أن يتزوجها كعرف عائلي لا أكثر، ومع الوقت صار يقترب مني ويبتعد عنها، وكلما زاد الوصال بيننا، زاد الجفاء بينهما، وألفيت نفسي أحبه، أرى فيه نواعم الأحلام، ودب في قلبه شعور مماثل وحصل النصيب.

قلت: أهكذا؟ بهذه السهولة؟

قالت: الأمر بسيط لا يحتاج للتعقيد، فقد أحس أحمد أن قلبه عاد فتيًا، وشعر بخفقه كما لم يشعر به من قبل، واختفت خيبته في التجربة الأولى، وقد أصبح أكثر نضجًا ونضارة.

قلت: والعمر؟

قالت: أخفى الحب فارق العمر بيني وبينه.

قلت: لماذا لمْ يطلق زوجته إن كان لا يحبها؟ لِمَ يبقيها في عصمته؟

قالت: كل شيء له حين

هجست أمرًا تدبره داليا، لم أعرف ما هو إلا بعد أن سربت داليا خبر زواجهما وأعلنته على الملأ، وانتشر كالنار في الهشيم في الشركة وتداولته ألسنة الموظفين والزملاء، فهاجت عاصفة صفراء في المكتب، صخب وضوضاء وصراخ صادر من مكتب أحمد، فقام ثلة من الموظفين يسترقون السمع ليطلعوا على طبيعة الأمر.

ولم تمر الدقائق حتى توارى الباب، وخرجت زوجة أحمد الأولى، بوجه عبوس مكفهر، قالت وعيناها ترمي شررًا: أين داليا؟ أين الخائنة؟ أين التي... ثم خنقتها العبرة وبكت بحرقة، واستأنفت أين التي خانت الزاد والملح، أهكذا يكون جزائي أن تخطف أبًا من بناته وتخرب بيتي وأطلق بسببها؟ وفي هذه الأثناء نهرها أحمد وبكتَّها، وظلا يتراشقان كرات النار حتى جرجرها وأمرها بالسكوت ووشوش في أذنيها بصوت مسموع تهديدًا ووعيدًا إن لم تخرج بسلام سوف تدفع الثمن غاليًا.

لقد شارف أحمد على الخمسين من العمر، لم يك وسيمًا، بقدر ما كان وقورًا لتعجب به شابة في مقتبل العمر مثل داليا، ومرت الأيام تلو الأيام، وضم ابنتيه إلى حضانته بحكم جائر، انصب في مصلحة داليا التي بدت كمخلص لهاتين الطفلتين من أمهما النسرة الكاسرة.

تجهمت برهة وأنا أحلل الأحداث بنصف ذهن، فقد كان النصف الآخر يصارع بعضه كلما نظر إلى رهف تذكر مرام، ودفعني الفضول إلى عمل شيء يخلصني من هذا الجحيم.

فقررت أن أذهب إلى دبي، تلك المدينة التي صاغت مسيرتها بنفسها، وحددت بوصلتها، وجعلت مفاتيحها أسرارًا عصية على الفك، لديها موسيقى خفية تسري بين البشر، وفي الشجر، والبر والبحر، كأنها بعض خيال.

افتتحت أمامي أبواب الحلم، وتسارعت رغباتي في رفاهية الحياة الجديدة، أمني النفس في نقلة كالتي نراها في وسائل الإعلام وفي المقاهي والفنادق وشبكات التواصل.

وبعد أشهر قليلة ـصبح لدي أصدقاء من كل الجنسيات العربية والأجنبية، وتعرفت على فتيات كثيرات، لم تلفت نظري إلا واحدة، جلّ الذي سواها، ناصعة البياض، ممشوقة القد، وسيمة الوجه، كان لحديثها نبرة خاصة، ولحرفها وهج مميز، بلهجتها المغربية السيَّالة التي تذيب الفولاذ والمعدن.

بقدر ما تحمل حسناء من جمال كانت تحمل حزنًا وقلقًا، فمعظم وقتها فزعة، تخاف من العمر الذي يذبل، ويواري معه جمالها، فكانت تبحث عن فارس مغوار وباسل جسَّار يطيح بهمومها أرضًا، تتألم بصمت وتتخندق خلف أسوار

الابتسامة، تفكر بقدرها مع رجل تتساءل متى يأتي؟ ومتى يظهر؟ وكيف يحملها بفستانها الأبيض على فرسه ويهرب بها نحو السماء.

قلت: حبيبتي حسناء، أنا الفارس الذي يتعرق من فرط حبه ويذوب من شدة غرامه، ويحملك على سرج من حرير ينساب في لطف ونعومة، فحياتنا ساعات قصار، فلا تجعليها تنفلت من قبضتك.

قالت: يسعدني الاقتراب منك، لأخفي فيك قلقي، وأحتجب خلف عقدي وغموضي، وأشعر أني حين أكون بين تفاصيلك أولد طفلة ببراءة معطرة، تحتويني دفء لحظتك، وتختزنها أهداب روحي.

قلت: أنت جميلة كما اسمك، كما تراك عيناي، كما تتحسسك يداي، وإن لم تكوني لي كما أريد فكوني معي حيث أريد، فمعًا نرتق ثقوب الروح ونسد فجوات القلب، نجلس على ربوة الأمل، جنبًا إلى جنب، نرتشف فنجان الخلود.

دعيني أريك الضوضاء التي في أعماقي، وصخب الحب الطاغي في دمي، كحفلة أطفال يتخاطفون فيها قطع السكر الملون والبالونات الزاهية، ويركضون على سفح البراءة وعشبه الزاهر، دعيني أصنع الربيع لك.

انسابت دموعها حارة لتملأ وجنتيها بماء حنين دافق، وعلتها حمرة الخجل والحسن الندي، فبادلتها نظرة عاشقة ولامست يدها العفيفة بيد مغروسة بالخطايا، ووقعت في شباكي، وأحبتني حتى الثمالة، لأني داعبت فيها طمعًا خفيًّا، وأقنعتها بأنني أمتلك الشركة التي أعمل فيها سائقًا، وأنني شريك أختي في رأس مالها، وأن سيارتي التي أقود، هي واحدة من أسطول السيارت التي أملكها.

الرغبة تخلق الحيلة، لهذا عشت مع حسناء بهذه الخدعة خمس سنوات، وحاولت مرارًا أن تقنعني بالزواج منها، ولكني أعدها وأروغ منها، ولا أشفق، فكيف يشفق من صب قلبه حجرًا، وكيف يروي من كانت روحه بئرًا معطلة.

هكذا هم الهاربون من الموت عنيفون حتى بلمعان عيونهم، وحروبهم طاحنة ل اتبرد ولا ترحم، أعوام مغرقة في البعد بين المال والحب واللذة، أرتع كي أنسى العتاب في وجه رهف، وأنسى الأنين في قلب مرام.. ولكن لا جدوى.

انكسار وليد

مرت السنوات بارقة، واشتد بي اليأس ويبست ضروع الأمل وأنا أحتضن الأحزان في صمت وحيدًا في معاقد الليل، أتوكأ على عصا الحسرة حين أتذكر رحيل أمي، تنهيدة مرام المتسللة إلى روحي، ووجه رهف التي مثل ملح الحياة.

حتى حسناء رحلت هي الأخرى، وغابت في زحام الدنيا، بعد أن قرأت في عيني ما أبت شفتاي البوح به طول هذه السنوات، أن لا أمل في الزواج منها البتة.

تعبت من الترحال قافلتي، بعد أن أهرقت العمر في الضياع وبلغت من الطيش عتيًّا، فأمسيت لا أنام وكأن تحت ظلوعي إبرًا، أو كأن السرير قد استعار شراشفه من جلد القنافذ، فذهبت إلى الطبيب وهناك أخبرت بفاجعة هشمت جمجمتي، قال الطبيب: سيد وليد، أنت مصاب بمرض نقص المناعة المكتسبة

قلت وأنا أرتشف الصدمة وقد شعرت أن رئتي كالحمصة لا تكاد تستنشق شيئًا: الإيدز؟

قال وقد برق الليل من زرقة عينيه ولمعت منها خطاياي: التعرق الليلي والشعور بألم العضلات والحلق أمر طبيعي، ربما يزداد في الأسابيع المقبلة ويتطور إلى تقرحات في الفم وانتفاخ في الغدة.

ابتسمت وأنا مكلل بالبكاء، وعضضت أناملي ندمًا، وترقرقت دموع اليأس من عيني وأنا أرى الحياة تلفظني وترزح بعيدًا عن أنفاسي، وتترك ضلوعي مسرحًا لعذاب الضمير، يدفع ثمن كل من جعلت في حلوقهم غصة ومرارة، وفي عروقهم حريقًا مستعرًا، وعذابًا مستمرًّا.

أمسيت كعجوز منكسر يمشي في موكب جنائزي، يحتفي باسمًا بالوداع الأخير، يحث السير مسرعًا ليواري غرور الشباب الحالم بالخلود، ويهيل أتربة الزمن على تجاعيده التي حفرتها مخالب الأيام في جسده الطري، فلم يظن يومًا أن الوهن سيتسلل زاحفًا في صمت القبور لينخر عظامًا كانت لتوها تحقر الجبال الشم من الشموخ والعربدة.

للذكرى طعم النحيب في حلقي، طعم الرماد المبلل بالدمع، أفقت مرة من نومي، أحسست بألم لا يطاق في رأسي وكتفي وظهري، تكاد تخرج روحي في كل مرة أسعل فيها، أنتظر الموت يدخل عليَّ في أي لحظة من أي باب، أغط في نوم قلق أتبع سهمه حيث يأتي، أبحر في لجج العتمة فتتراءى لي صور شتى، أمي.. مرام.. رهف.. داليا.. وعشرات الوجوه المعذبة التي طمستها في لذتي، ورميت بها إلى المجهول.

أمسى جسدى مثل جيش يتقهقر جنوده يئنون، وقلبي مثل مهزوم أسقط الراية، ونقلت إلى المستشفى لأن رعاية البيت لم تعد تكفي، ولا الطاقم الطبي الذي جهزته داليا لي عاد ينفع، أنام وأصحو، وأرى رهف واقفة فوق رأسي والحيرة في عينيها ناقوسٌ يدق ساعة رحيلي، ودداليا تمسك يدي كأن عينيها مطفأتان من أثر البكاء الموصول.

يومًا بعد يوم شغلتهم عني تروس الحياة، ولم يأت منهم أحد إلا قليلًا، صرت أهاتفهم أكثر، ولكن بعد حين حتى الهاتف لم يعد يجدي من تقرحات فمي وصعوبة الكلام، عندئذ خيَّل لي أنني وقعت في بئر لا يسبر له غور، في مكان

مسخوط، ومر وقت خلته دهرًا، ولكن في الحقيقة لم يدم طويلًا، هي بضع دقائق حتى دخلت رهف.

كتبت لها في ورقة: لا بد أن تبحثي عن أمك، اذهبي إلى بغداد وابحثي عن بيت جدك في الوزيرية.

قالت: أمي التي تركتني ليست أمًّا، أنا أمي داليا التي ربتني وسهرت عليَّ الليالي، ووقفت بجانبي حتى اليوم.

كتبت وقلبي يخفق بشدة وغمرني عرق غزير: اتق الله يا ابنتي، لقد أخذتك من أمك عنوة، حرمتها منك وحرمتك منها رغمًا عني، فقد كانت ظروفي أقوى مني.

قالت: ولم لم تبحث عني كل هذه السنوات؟

كتبت وسؤالها أثار في مشاعري الأسى: لا تعرف أين أنت

اشتدت بي نوبة السعال وبات صدري يعزف حشرجات مميتة، تقبض وجهي وتصببت عرقًا، فاقتربت رهف مني وجلست بقربي وقالت: أنا ذاهبة إلى أمريكا، والإجازة الدراسية قد أزفت أيامها يا أبي، وأنا خائفة أن أتركك وحدك.

كتبت: لاتقلقي يا ابنتي، عمتك داليا تقوم بالواجب وأكثر، اذهبي لمستقبلك فحياتك أبقى لك مني، ولكن خذي ورقة وقلمًا واكتبي رسالة لأمك، وأودعيها صندوق البريد، علها تجدي المحاولة وأحصل على بعض غفران يخفف عني كدرة روحي.

صندوق البريد
مرام

انتصف النهار ولم أزل في سريري نائمة، ربما لم أنم منذ سنوات بمثل هذا العمق والراحة، استيقظت على صوت مريم وهي تقول: مرام، أما زلت نائمة؟

قلت في اندهاش: مريم حبيبتي؟ مرحبًا بك، خمس دقائق ونلتقي على مائدة الفطور، وأومأت لمدبرة المنزل بتجهيز المائدة بسرعة.

في جعبتك شيء؟ قلت لمريم

قالت: في حقيبتي أمانة لك، لا أدري هي سارَّة أم ضارَّة؟

قلت: إذن تلعبين معي لعبة البيضة والحجر؟

قالت وهي تقهقه: أقسم لك يدي فارغة، ليس معي بيضة ولا حجر.

خرجنا نتكئ في الحديقة على أريكة خشبية، وفي يدي غصن من الريحان، اعتدت أن أشم رائحته العبقة كل صباح، ولم تلبث مريم حتى فتحت حقيبتها وناولتني ظرفًا أبيض اللون على ظهره مكتوب " يسلم ليد السيدة مرام عبد الرحمن" معنونًا بعنوان بيتنا الكبير، حدجت لمريم وهي تلوي شفتيها معربة عن استغرابها هي الأخرى.

قلت: من يا ترى الآن يرسل رسائل ورقية عبر البريد، ونحن في عصر التكنولوجيا

قالت: أظنه من "رهف"، لأن ساعي البريد أخبرني أنه من الإمارات.

نظرت إلى الطابع والختم البريدي وإذا هو من الإمارات فعلًا، تجمد الدم في عروقي، وبرعشة واضحة في أصابعي فتحت الرسالة، وإذا هي من "وليد":

إلى سيدة العمر.. مرام:

"أكتب إليك وبيني وبين الرحيل ذراعٌ، أشم رائحة الموت تخضّر في عروقي من مرض عجز عنه الطب، أكتب

إليك وأنا طامع في قلب رحيم أعرفه حق المعرفة، أن يمنحني فرصة واحدة فقط، لأشرح لك ماخفي عنه من سنين.

وليست سوى أيام قليلة وأشد الرحال إلى الآخرة، ولم يبق لك إلا الحضور أو تركي في لحظات احتضاري أموت وحيدًا.. والقرار لكِ".

قرمشت الرسالة بأعصاب مشدودة، وشعرت أن الكون أبطأ سعيه، وخرج عن سنة دورانه، وهجست بصدري يمتلئ، ويتصلَّب كالأفعى إذا هوجمت، وأنا أشاهد مريم تهرول باكية، فلعل السآمة التي اشتعلت بداخلي قد أفزعتها، وما فتأت أسال نفسي ماذا يريد مني هذا الوغد، أبعد كل هذا الوجع يطلب مني اللقاء؟

سكن الليل وحان موعد الإصغاء إلى عسعسة الأنات في صدري!! وذاكرتي تتقن فن التكرار كالببغاء، والحفر التي ردمتها فيها تناصبني العداء.

لقد دس السهد في وسادتي وأرغمني على ابتلاع الهم، وأحسست أن رسالته أغلقت دكاكين عقلي كلها، وعادت بي إلى أنقاض الماضي، ونصبت لي من جديد مشانق الذكريات.

المطارد
مهند

ذهبت مرام تتمشى عند الزهور التي زرعتها بنفسها في ركن الحديقة، رمقتها وأنا في حالة ترقب وشوق لزيارة رهف لبغداد، ومن شدة ارتباكي ربطت ربطة العنق ثلاث مرات ولم أستطع ربطها بصورة صحيحة إلا في المحاولة الرابعة.

توجهت إلى الأكاديمية، وانتظرت اتصالها ولكن لا شيء حدث، اتصلت بها كثيرًا ولكن دون رد، يلبي استغاثة ملهوف يسافر من شوق إلى شوق يقضم أطراف الليل انتظارًا، ويلعق الندى شغفًا.

لحظات قائظة وشهيقٌ يجرجر حنجرتي الظامئة، أخال الزمن حبيبات من زئبق تتفلت هاربة بشقاوة من بين أناملي، كلما حاولتُ لملمة الثواني أهُبُّ مذعورًا من أحلامي لأجد فوهة الفراغ والصمت والسكون مسددة نحو رأسي.

جلست كالمجذوب في كافيتريا الأكاديمية مع بعض الزملاء والطلبة، خرج النادل يمهلني نظرات أردتني مرميًّا خلف السور، أطالع الجميع وكأنهم يعرفون أنني في حالة يتم، وكأن شعري الأبيض تحالف مع الزمن ليشي بأني لا أجد الحب، أمني النفس بجحيم الموت، فيدفعني الموت إلى جحيم الحياة.

رن هاتفي وإذا برسالة نصية من رهف: حين تصلك رسالتي فإن هذا يعني أنني على متن الطائرة المتوجهة إلى أمريكا، فلقد فكرت كثيرًا بارتباطنا ولكني مع كل الأسى لم أستطع، أرجوك سامحني ولنفترق متعانقين، كأي اثنين التقيا وتفارقا.

كفكفت دموعي، وكتبت لها بيد مرتعشة رسالة نصية: "ليت القلوب كالطيور على أشكالها تقع.. لقد تمنيت أن تكونيني، وتكوني لي، وتمنيت أن أخط حروف اسمك فوق أشعة الشمس، كنت أبحث فيك عن صدر مغرٍ كالحقل، لا عن فراغ وغثاء أحوى، حقل أرتمي عليه كما الجنود المتعبين، الذي فرغوا للتو من المعركة، وأنا مهدود أحمل

في داخلي أينما مضيت معركة، ولكنك أبيت أن تكوني شمسي وظلي، وأرضي وسمائي، وكواكبي ومدار أفلاكي، لذلك لن أسمح لهذا القلب أن يتناثر بين أقدامك ثانية، ولن أسمح بأن تجولي بخافقي بعد اليوم".

لقد تحولت نبضاتها التي تعزف الموسيقى، وشدوها المحلق في السحاب إلى أغلال في يدي ومقامع في رئتي، عدت إلى البيت محزونًا فلم أجد أحدًا، اتصلت بمرام لكن هاتفها مغلق، هاتفت مدبرة المنزل، فصعقني أن مرام سافرت إلى الإمارات.

اتصلت بمريم وصباح، بيد أن كلتيهما لا يعرفان عن سفرها شيئًا، لقد رحلت خفية وذهبت دون أن تخبر أحدًا، ولت كربَّان جائع للرحيل، تركتني أصارع الظنون والتيه في الأسئلة.

رن هاتفي وإذا بسمر تطلبني، ذهبت إليها أمشي ببطء مثل قدم العجوز، كعصفور طريد الروض مهدور المواويل، وفي يدي أحمل فارق التوقيت بين نبضي وخطوتي، فتح الباب رجل

ضخم الرأس ذو منكب عريض وممتلئ البطن ويدين قويتين وعروق نافرة، يحدجني شزرًا بعين جاحظة وحواجب سميكة، وظهرت سمر وهي تقف خلفه ترحب وتدعوني للدخول، فعرفت أن ثمة شيئًا ما يحدث لا أعرف ما هو، وكأن الدنيا خاصمتني وأغلقت أبوابها بوجهي بأقفال من نار، اعتذرت وعدت وليس معي سوى الانتظار، فكم هو مؤلم أن تحل بك مصيبة ولا تدري بمن يمكنك الاتصال وبمن تلقى المواساة.

تيقنت أن الحب يطمس الألم، ولكن لم أتصور أنه يعذب مريديه هكذا! وتيقنت أن السقوط فخ متكرر لذلك كان عليَّ أن أكون حذرًا، وأن أشم رائحة الحفر عن بعد وأعرف كل ندوب الطريق.

لقد شعرت أن ما يحدث اختبار عظيم لصبر أوشك على أن يكون حطامًا، لقد أهانت مرام ما كان كبيرًا في داخلي، شوهت ما كان جميلًا عندي، وشوشت علاقتي برجولتي.

رن هاتفي من جديد وإذا هي سمر ثانية، تطلب مني العودة، فابن عمها الذي جاء لزيارتها قفل راجعًا إلى مدينته، لبيت

الدعوة بلهفة المستجير، وأول ما وصلت إليها ناولتني كأس ماء، وبينما كنت أعب منه على عجالة رن هاتفي فصرخت: مريم.

قالت سمر: من مريم؟

قلت: أخت مرام

قالت: إذن رد عليها بسرعة

بعد التحية.. ألقت مريم الماء فوق النيران المشتعلة، فأخبرتني أن مرام ذهبت للقاء ابنتها رهف.

قلت: لماذا هربت دون أن تخبر أحدًا؟ هل في الأمر سر، هل تتصور أنني سوف أمنعها من رؤية ابنتها؟

قالت: غلبتها عاطفتها هذه المرة وخاصة أنها حرمت من ابنتها سنين طوال.

رن هاتفي مرة ثالثة، فإذا بمدبرة المنزل، تخبرني أنها عثرت على رسالة في إحدى أرفف المكتبة، وهي من وليد إلى مرام.

ذهبت مسرعًا ومعي سمر والشك أضحى غولًا بداخلي ويريد التهام يقيني، فاندفعت سيارة الجنون متجهًا إلى البيت

ووجدت الرسالة وفتحتها وليس في خلدي سوى الانتقام من مرام، فكيف لها أن تمد جسر الوصال مع غريمنا اللئيم فتمنيت وقتها لو أصنع منها حطب المحرقة.

قرأت سمر الرسالة أيضًا، وصرخت: إنه خط وليد.. أنا أعرفه جيدًا؟

قلت: عن ماذا تتحدثين؟

قالت: أنا أعرف وليد هذا حق المعرفة، هو الشيطان الذي زرع اليأس في أحشائي

جلست وقد أنهكني التعب، وقلت: هو نفسه الذي تزوجك بالسر، ثم غدر بك ولم يعترف بزواجكما؟

قالت وهي تبكي بحرقة: وبسببه أيضًا خسرت ما يجعلني أندم عليه طول حياتي

قلت: ما الذي يحدث لنا بالضبط؟ أيلاعبنا القدر؟ أم استكثر علينا أحلامنا؟ أم يعرينا أمام جبروتنا ويكشف لنا أننا حمقى؟

قالت: إننا فيها يا مهند، هذا الوليد هو عدونا معًا، لقد نال مني ومنك.

قلت: بما تفكرين؟

قالت: الانتقام، تغسل عارك وأطفئ ناري.

قلت مستدركًا: لا..لا..انتقمي وحدك إن شئت، واكسري باب قلبه كما يحلو لك، فعنوانه بين يديك، أما أنا فلا تبالي بما أثرثر ساعة الغضب، حسبي أني شربت كأس الانتقام حتى المرارة

قالت: أجبنت يا مهند؟

قلت بألم ووجع: حين يمتلئ القلب بالمحبة إلى حافته ويفيض، ستدركين ما أقول.

خرجت سمر غاضبة مني ووقفت مصلوبًا لا أدري ماذا أفعل، أنهكني التعب فوضعت رأسي على وسادتي وحيدًا، وتراءت لي خالتي أم مرام رحمها الله في المنام وهي تقول: نم يا ولدي لقد برزت عظام وجهك أكثر مما تصورت.

قلت: من السهر يا خالة

قالت: وهل ينام المطارد؟

قلت: من يطاردني؟

قالت: الحب يا ولدي! الحب

رجاء
وليد

لم يبق في القلب سوى الرماد والقتلى ورائحة الهشيم وحطام المراكب، بدأت أفقد صلتي بالحياة وبدأ الألم يرقص بين جلدي ولحمي ويتسلق عظامي ويربط حبالي الصوتية ويخرج من تحت وسادتي حين أحاول النوم، ويقرفص قرب حنجرتي بعيون فاغرة، ويحدق في وجهي في الظلام.

استيقظت ممزق الجسد بعد ليلة لم يزرني النوم فيها إلا لمامًا، وفي رأسي أفكار موبوءة بالوساوس والمخاوف ترددت في أجواء غرفتي، فبات التنفس جارحًا وكأنني أبتلع مساميرَ صدئة.

تحشرجت اللحظة في صدري وضاق المكان دون أن أجد سبيلًا للهرب من الاختناق، حتى أرسلت نظرة فطرية إلى الباب وهي تفتح في أناقة مرموقة، فإذا بي أرى أمامي مرام، بدمها ولحمها، حقيقة غير خيال.

ها هي التي أحببتها إلى الحد الذي لا حد له، ها هي تقف أمامي بعد كل المعارك والهزائم، وقد خصم الوجع أي رصيد لي في قلبها وتركه صفرًا، ها هي أولى خطواتي الطاهرة، ها هي مستودع الذكريات النقية، أنظر إليها بعيون هامعة تحكي فراغ الأمنية واعتراف الوحشة واقتراب الروح من موت قريب.

قالت: أين رهف؟ أين ابنتي؟

كتبت: في صوتك مرار أعرفه، ولكن أنا الآن على فراش الموت

قالت: لا أملك صوتًا يطمئنك.. أين ابنتي؟

كتبت وقلمي يجرح جلد الورق: ولكني رغم كل ما فعلت أحببتك بصدق

قالت: إن كان هذا هو الحب فماذا عن الجحيم؟ اللعنة على هذا الذي تسميه حبًّا، نشب سهامه في قلبي فأدماه، أخبرني أين ابنتي؟

كتبت: رهف بخير، ستلتحق بكلية الإعلام في أمريكا

قالت: لقد وعدتني أنك ستخبرني بما لم أخبر به من قبل، هات ما عندك؟

أعطيتها الصورة، والتقطتها بأصابع مرتعشة وهي ترى ابنتها يافعة بعد أن تركت مدن الصبا فصرخت: أهذه رهف؟ أنا أعرفها، رأيتها في مصر دون أن أعرف أنها ابنتي، رحماك يا رب.

ثم أعطيتها ورقة مكتوب فيها: سامحيني

قرأتها وهي تبكي: كيف؟ والنفس خاصمتها العافية وأهلكتها الأدوية، لقد نضبت الحياة من حياتي وأنا أصارع فيها النوم بالمنومات.

أقضي السنوات في هستيريا صامتة، أقرأ كل يوم في كتاب الحزن، وأنتظر أن تأتي الشمس كل صباح فلا تأتي، وأنتظر الهدهد أن يأتي ببشرى مطر يطفئ نيران ظنوني فلا يأتي، كنت أحسب نفسي مطرودة من رحمة الله، أرغفة الرحمة توزع على البشر كلهم ولا أجد منها كسرة، سنوات وأنا أسقي الصمت كأس القلق، وفي أعماقي أفترش الأرض

وألتحف السماء مثل السباع والشوارد والدواب، حتى أصبح الوجود عندي كالعدم، ثم تطلب الغفران؟

حدقت إليها وكتبت: لا تتركيني دون رجاء، سيكون غفرانك البسمة الأخيرة التي تضيء عتمة وجهي المحتضر

صمتت طويلًا وهي تلملم مشاعر ضائعة، ثم كتبت لها: أصمتك رضا أم لا، ففي الوجع كل الدموع شبيهة

لقد عض الندم صدري، وبيني وبين الموت خطوة بعدما فلت مني زمام كل شيء فكتبت: سامحيني يا مرام، وبقيت منكس الرأس، أبكي وأقرع سن الندم

قالت بصوت وقور يفيض بالسماحة: كم نزعم أن نصف أوجاعنا تُشفى في الانتقام، ولكن في الحقيقة إن أوجاعنا تُشفى كلها في الغفران، غفر الله لك يا وليد، إني سامحتك لوجه الله.

موت وحياة
مرام

الموت أكبر حالات الوعي، فحينما يحل تنكشف الحقائق وتنزع الحياة رداءها المغرور، ويتضح جليًّا مكنونها الأزلي، لقد مات وليد وهالني ما وصل إليه حد الصدمة، حاولت عبثًا أن أحفر في خيالي خنادق أستخفي بها من واقع مرير، من فتاة باتت صورتها مهجورة في غبرة أدراجي، وزوج غاضب يظن أنني خنته مع عشيق قديم بعدما كان يتباهى بجلباب طهري في زمان رخصت فيه قيم العفة، وفاتورة كتب عليَّ أن أدفع ثمنها شئت أم أبيت.

أتصل بمهند وأنا أنقش على دفاتري ملامح مشردة وأحلامًا غضة وهنت على عكاز الصبر، وفي جعبتي حكايات بائسة، وتفاصيل باهتة، ووجوه مخضبة بالعناء، أتصل به دون رد، توسلت مريم أن تزيل اللبس، وتعيد الثقة، ويتأكد أن

وليد كان وما زال ماضيًا مؤلمًا لا أكثر، وأن ظنونه التي تحاصره محض سخرية.

سفينة صرنا بلا مرفأ
بلا ميناء يأوينا
ندور مثل أقطاب الرحى
نلف كالطواحينا
ندور في بحرنا عبثًا
وقد تاهت شواطينا
ماذا جرى؟
كيف ذاب الحرف في فمنا
كيف مات الشوق في دمنا
ما الذي صائر فينا
كل واحد منا خاسر
أصفار في أيادينا
حتى شهيق الحب يا وجعي

ما عاد يحيينا

وعهود في العشق حفظناها

أكثر من أساميا

هي الأخرى قد أصابها عطب

وجفت في مآقينا

وبعد ليلة مريرة، تربعت فيها شمس النهار، وكان الجو حارقًا لا أدري أمن شمس تموز أم من مخاوفي التي بدت كأنها قادمة من جهنم البعيدة؟ ذهبت مريم لإيضاح الموقف، ودخلت مكتب مهند، وقالت: مات وليد، وقد أعطى لمرام هذه الصورة وبعض المعلومات عن ابنتها "رهف".

قال مهند وقد رأى الصورة: رهف؟

قالت مريم: نعم يافعة وستدخل الجامعة.

قال مهند بمشاعر مضطربة، وقد امتقع لونه وكأن شيئًا سقط على رأسه، ما طلباتك يا مريم؟

قالت مريم باستغراب: عفوًا؟ أنا ليست لي أية طلبات، إنها زوجتك تريد الغفران، فلا تدع الألسنة تتقاذف القيل

والقال، وإنك تعلم أنها خائفة، وأنت تعلم علم اليقين حين يعصر الخوف جوف أحد كيف يذره قاعًا صفصفًا.

قال مهند: لقد أهانتني

قاطعته مريم قبل أن يسترسل: لا.. أرجوك.. عن أي إهانة تتحدث؟ ذهبت مرام لترى ابنتها التي حرمت منها ظلمًا، ووجدت حفنة من ضوء في ظلام دامس، وأملًا بعد سنوات عجاف، فأين الإهانة؟

قال والأسى يعتصر قلبه: لِمَ لم تخبرني؟

قالت مريم: معك حق، لقد أخطأت.. وتطلب المعذرة، ولا بد أن تسامح.. فمرام حامل يا مهند.

سرى بمهند ما يشبه الكهرباء، أنعشت أعصابه المنهكة، فقال: حامل؟

وعقب صلاة الظهر، كنت أقبع فوق سجادة الصلاة بيدي مسبحتي أذكر الله، رهفت أذني لمفتاح البيت يفتح، فالتفت ورأيت مريم تدخل وخلفها مهند يقفز فرحًا كالأطفال، يهرول نحوي بطريقة عجيبة، احتضنني يقبلني،

فتعانقنا وتقاسمنا دموع البشرى، ومريم تضحك تارة وتبكي تارة، ربما لأنها لم تصدق أنها استطاعت أن تجمع بين الشمس والقمر في وقت واحد وفي مكان واحد.

جلس أمامي جلسة القرفصاء، فوق سجادة الصلاة، يحدق إليَّ، يتأملني، ويتأمل ما في بطني، وقال: سامحيني

قلت: سامحني أنت قبلًا، فأنا المخطئة.

قال: الحمد لله أنك اعترفت، فأنا لم أغضبك يومًا بشهادة الجميع

قلت ضاحكة: اقترب مني حد الالتصاق لأهمس لك حكاية جديدة لا دموع فيها يغفو عليها خفقان صدرك وضممت رأسه إلى صدري، ألمس شعره بأطراف أناملي: "يحكى أن رجلًا وامرأة، ظلا متزوجين ستين سنة كانا خلالها يتصارحان حول كل شيء، ويسعدان بقضاء كل الوقت في الكلام أو خدمة أحدهما الآخر ولم تكن بينهما أسرار، ولكن الزوجة العجوز كانت تحتفظ بصندوق فوق أحد الأرفف، وحذرت زوجها مرارًا من فتحه أو سؤالها عن

محتواه، ولأن الزوج كان يحترم رغبات زوجته فإنه لم يأبه بأمر الصندوق، إلى أن قضم المرض زوجته وقال الطبيب إن أيامها باتت معدودة.

فطلبت منه أن يفتح خزانتها ويحضر الصندوق ويحمله إلى حيث ترقد، ابتسمت في حنو وقالت له: لا بأس الآن بإمكانك فتح الصندوق، ففتح الرجل الصندوق ووجد بداخله دميتين من القماش وإبر النسج المعروفة بالكروشيه، وتحت كل ذلك مبلغ ٢٥ ألف دولار، فسألها عن تلك الأشياء.

فقالت هامسة: عندما تزوجتك أبلغتني جدتي أن سر الزواج الناجح يكمن في تفادي الجدل، ونصحتني بأنه كلما غضبت منك، أكتم غضبي وأقوم بصنع دمية من القماش مستخدمة الإبر.. هنا كاد الرجل أن يشرق بدموعه: دميتان فقط؟ يعني لم تغضب مني طوال ستين سنة سوى مرتين؟

ورغم حزنه على كون زوجته في فراش الموت فقد أحس بالسعادة لأنه فهم أنه لم يغضبها سوى مرتين، ثم سألها: حسنا، عرفنا سر الدميتين ولكن ماذا عن الخمسة

والعشرين ألف دولار؟ أجابته زوجته: هذا هو المبلغ الذي جمعته من بيع الدمى.

فضحك وضحكت وضحكت مريم على هذين المجنونين السعيدين، اللذين استوقفا النجمات وقطفا منها بعض الضياء، وغزلا منها وشاحًا يدثرهما ويحميهما من أحزان الحياة.

لقد فاض على حقول العسر يسر، وملأ الحب رئتاه مجددًا، وبعد شهور خمسة،كنا على موعد لاستقبال عام جديد وقد كبرت بطني وأنفي معًا، أتعكز الضلوع وأجر ظلالي ومع ذلك لم أسلم من مساعدة نادية ومريم وصباح وسمر زميلة مهند، التي تزوجت من عمها فور عودتها من أداء مناسك العمرة، بينما مهند ودكتور وائل تولا تعليق شرائط الزينة، ونصب الشجرة وتزيينها.

هو اليوم من كل عام.. أظل أراقب الساعة، وألاحق عقاربها، وأنصت لتكاتها، فتتشابك أفكاري وتتوقف أزمنتي وتخفت وتقترب حتى أرهق، لكني اليوم أجيد إدارة ذاتي بأحزانها وألوانها وصناديقها السوداء وأبوابها المغلقة.

هكذا هو كتاب الحياة، تبدأ فصوله الجميلة، وكلما قلبنا أوراقه يشدنا الشوق لأوله، لكني اليوم لن أدير ظهري للحقيقة، لن أقف صامتة أمام المرآة أبكي وأشتهي الموت مكتوفة اليدين، فقد تعلمت والحمد لله كيف أفرق بين الحقيقة والخيال.

دقيقة واحدة تفصلنا عن منتصف الليل، لن أتلعثم.. لن أتردد.. ولن أهش بعصا الصمت على ألمي، ولن أصنع المزيد من النكايات بذاتي، ولن أتحول لامرأة تقف بين عامين، لتعبث بها سياط الذاكرة، سأطلق سراح ذكرياتي لتتطاير منها تواريخي وأيامي وسنوات عمري الفائتة، وسأبتهج لغد أنتظره، لغد سمح الله لي بأن أهندسه وأن أعتق فيه نافورة الأمنيات لابنتي ولزوجي ولطفلي القادم ومن أحبهم بكل سعادة.

امرأة الظل
سالي

أنا العين الشاهدة والناظرة إليهم من بعيد عبر الأمكنة والأزمنة، أعرفهم جيدا، اقتربت منهم واحدًا وحدًا، ولم ينج أحد من الشعور بلهبي وفحيحي وزعافي، أنا اللعبة والوجه الآخر من العملة التي لا يُعرف عنها الكثير، أولها خفي وآخرها خفي.

أنا المتعة والملحمة، أنا الهذيان واللوعة، أنا كيّاسة الخراب، ومحيرة الألباب، أخرم الحقيقة بمخلب الباطل، أقلب الماء نارًا، والنار ريشًا، والريش شجرًا، والشجر حجرًا، والحجر ماءً، أنا ابنة الظل ورهينة الأسرار والنجوى، لي النار أصطليها وحدي في صمت، رقصت فوق الحبال، نذرت حياتي لكل شيء مؤلم، مشيت بدرب لا أبصر نهاية له سوى أن أجعل حياة هؤلاء المهرجين جحيمًا لا تنطفئ.

حين رأيته أول مرة سقط قلبي بين قدمي، رآني وأنا أتلمله من الأرض، رمقني بنظرة عطف حين وجدني أبحث عن أجزاء قلبي المبعثر، ولم أصدق أنه اقترب وساعدني في رفع انحنائي واستقامة عمودي الفقري.

لقد أعاد لي قلبي كاملًا كأن لم يقع، حين ابتسم وقال: حضرتك أستاذة سالي؟ شعرت أن في فمي لفافة قطن، وتمتمت بكلمات ضائعة الحروف، يكسوها الخجل، وقلب يئز كمرجل وجسد يسعر كالجحيم.

لا أدري كيف استطاعت عيناه التحكم في نبض قلبي، وأخيرًا - قلت في نفسي - وجدت نفسي، وجدت نصفي بل كلي، بل كل شيء حولي، ومنذ ذلك الوقت لم أعرف النوم لا من فرط حبه فحسب، ولا من خذلان عقلي الذي ما فتئ يفكر فيه، بل لأنه سكن جفوني واضعًا رجلًا على رجل، واتكأ بظهره على سوادها، وهو ينفخ دخان سيجاره.

واو.. لام.. ياء.. دال، هو كل ما تمنيته في الحياة، لو كانت لي غاية لكان هو الغاية، ولو كانت هناك لذة منعشة وسحابة عطر ممطرة لكانت هو، تمنيته كما لم تتمنى امرأة رجلًا.

ذات يوم اتصلت بي صديقة الدراسة وأيام الصبا "داليا"، وطلبت مني أن أجد لأخيها "وليد" عملًا، أي عمل، حتى لو عامل بوفيه يقدم الشاي والقهوة، فأخبرتها بأننا نحتاج إلى حراس في مقر الحزب، فليأت إلى مقر الحزب غدًا.

لعن الله السلطة.. تجعلنا نتضخم كالظل، كالخمر تدير رحى رؤوسنا حتى نظن أننا فوق الاشياء، لقد خلعت ثوب الوقار من أول وهلة تلاقت فيها عينانا، وبادلت جسارة نظراته بنظرات ملتهبة، وأنا أحدثه بصوتين صوت عال يرحب به وصوت داخلي يحثم بين يديه يريد تقبيلها، ولم تمنعني مرتبتي الحزبية ولا شخصيتي النافذة، دون الضياع في وليد، فكنت أستجدي قواي، وأعصر كل طاقتي، كي أثبت أمام نظراته الحارة التي سارت في جسمي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي.

شهقت حين صافحني، شهقة الورد إذ يلامسه الندى، وتلوى الناي في صدري.. غنى.. وناح، فقلت وأنا أفتعل الجَلَد: تفضل بالجلوس، واستجديت أنفاسًا من عطره

وتمتمت قائلة: أخبرتني داليا بأنك تريد عملًا، والحقيقة أننا بحاجة إلى حارس أمن رابع مع الثلاثة الذين معنا.

قال: تفضلي السيجار

حمحمت شفتاي وقلت: شكرًا.. لا أدخن

قال مبتسما: ستدخنين

قلت بتعجب واشتهاء: نعم؟

قال: ما دمت سأعمل معك حتمًا سوف تدمنين التدخين، لأنني متعب جدًّا وألوع الأكباد

قلت بسّري: وتُمزق الأحشاء، وتتلذذ بقتلاك وأنت تمثل بأجسادهم وتقطعهم إربًا

قال: متى أبدأ العمل؟

قلت بعشق لنظراته الجائعة: غدًا في الثامنة تكون في المقر، سيرخص لك مسدسٌ خاصٌ.

قال: متى أكون حارسك الشخصي؟

قلت: يبدو أنك مستعجلًا، لكن لو أثبت جدارتك ستحصل على ما تريد.

هو البدر سيد كل المرايا، عيناه البارقتان هما كلمة السر، وملامحه الصريحة تعلن عن فحولة عتيقة، كشهريار الملك الآمر بالعشق، دخلت إلى وديانه حافية القلب أبادله ولائم الحب وأسامره كل ليلة بألف عناق وعناق، أرد عليه ورود الخيل العطشى إلى الأنهار أقمطه بأضالعي وأحتضنه احتضان مفتأد يتلوى حبًّا وصبابة، لعله يترك لوعة العطر في قمصاني الباردة.

ملكني قلبًا وعينًا وصار الماء لجذري وغصني حتى عشقته عشق الظمآن لفم السقاء، أيمم روحي شطره أينما غدا أو راح، حتى بدوت وكأني أحاصره وأضيق حول عنقه الخناق، أقترب فيبتعد، اهرول نحوه فيركض، ألاحقه فيهرب.

لم يكن باليد حيلة، تهيمني هواه فشددت عليه صدري فلف على رئتي حبل الصد، أحببته أكثر مما أتنفس، ونثرت كل ما أملك تحت قدميه، أسقيته الحب قطرة قطرة ولكنه أفرغ قلبه مرة واحدة، وشعر أن علاقتنا قيدًا في معصميه وجنزيرًا في قدميه وجمرًا بين عينيه.

وبعد حين أدخل كفي يديه في جوف صدري وأزاح أضلعي المقوسة واقتلع قلبي ورماه، حين استقال من العمل وتركني مثل الغراب، أنعق وحدي فيعود الصدى بالخيبة والوحشة، أدفن بعضي ببعضي وأمضي كشجرة عارية أُسقِطت أوراقها وتفتش عن عصافير تستر سوءة أفرعها.

عام ونصف مر على فراقنا، بكيته حتى تشققت روحي، ترمد قلبي وتصدع مثل بركة ساكنة جرحتها سمكة، يلتهمني الحنين إلى الماضي وتلتف ساقي على خاصرة الأيام، فأشعر أني محبوسة بين تائين، تاء الموت مبسوطة اليد، وتاء الحياة مربوطة كالمشنقة.

وذات يوم فاتر ممل عدت إلى البيت من اجتماع طويل شبه ميتة، كل جزء في جسدي يتأوه، وأصوات المساجلات السياسية تدير رأسي كالرحى وتطحن أفكاري طحنًا، وإذا بسمر - أختي الصغيرة - تبكي وترتعش كأنما صعقت، زممت شفتي وهممت برفعها من الأرض وقلت: ما بك سمورتي لِمَ البكاء حبيبتي؟

قالت: أريد أن أموت دعيني أقتل نفسي وأنهي حياتي.

قلت: كيف تقولين هذا الكلام وأنت مثقفة وفنانة، فتاة مثلك في عز شبابها تقبل على الحياة أم تنتحر؟

قالت: أنا حامل

انفجر في رأسي ما قالت كإصبع الديناميت، ولم أصدق ما سمعت وصرخت: ماذا؟ أخبرتني بعد أن رمتني في لظى أنها تعرفت على شاب يعمل في أمن الأكاديمية.

انكفأ لوني وارتجفت أوصالي وقلت بصوت متهدج: من هو؟ ما اسمه؟ أين يعيش؟

قالت: وليد أخو صديقتك داليا

شعرت كأن منجلًا حصد روحي ورماها في فلاة، وقمت على الفور وقدماي ترتجفان، وعيناي من البكاء تسقطان، كيف أنتقم ممن أعشق؟ كيف أؤذي من أحب؟ كيف لقلبي أن يحيط بالجنة وبالجحيم معًا؟

وكما قيل "قاتل في الحب كأنك الجندي الأخير.. من ثغركَ يُؤتَى، ومن جبهتِكَ ينتصر" قررت القتال كأني ذلك

الجندي فلن أسمح أن تخطو الآلام على قلبي وتجعجع به العواصف، لن أقف بيدين مكتوفتين لا حول لي ولا قوة.

اعترتني رغبة شيطانية بركل بطن سمر، وفقس أحشائها، وكتم أنفاسها حتى الموت، ولكني تريثت وأقنعتها بحنو مصطنع أن تجهض الطفل بأسرع ما يمكن، لأقطع الحبل المشدود بينها وبين وليد إلى الأبد، كما منعتها بالقوة إخبار داليا بما حصل، لأنها حتما ستصطف لصالح أخيها وستتخندق ضدنا بلا جدوى.

وذات يوم مطير، سارت بنا أقدامنا إلى الوجه الآخر من كوكب الأرض، إلى حي اسمه "حي التنك"، ذلك الحي الذي لم يزره الأسفلت ولا مرة بينما يزوره الفقر والموت والمرض في اليوم ألف مرة، ذلك الحي الذي ينتظر أهله "نهاية العالم" ليميط اللثام عن وجهه ويخلصهم من الفقر وينتقلوا إلى الجنة.

قادنا لعيادة التضميد رجل خمسيني أشيب، سقطت ثلاثة أرباع أسنانه بسبب إصابة حرب، وجهه يشبه قعر مقلاة قديمة تطفح بالسخام، كان يرتدي بنطالًا عريضًا،

وحذاءً عسكريًّا أسود أو "البسطال الروماني" كما يعرفه الجنود أيام الحروب السابقة.

وبأقدام واهنة خائفة مترددة ولجنا بحذر في أزقة عشوائية متعرجة تمر بينها أنهر من المياه الآسنة، تؤدي إلى خرابة في بناء مهترئ، أُخبرنا أنها عيادة المضمد الطبي الذي سيجري عملية الإجهاض.

أجرينا العملية بنجاح، ولاك اليأس قلب سمر وابتلع حلمها تمامًا، فوليد رجلي أنا، لا يحب غيري ولن يكون لأخرى مهما كان، ولكن يبدو أني كنت استند إلى الهواء، فقد أخبرتني داليا أن وليد سيتزوج، وانه أخيرًا وجد نصفه الثاني، فانفتحت بصدري مزاريب الهموم وشعرت كأن سيفًا بتارًا شقني نصفين، نصفًا يعشق وليد، والنصف الآخر يموت فيه، فهو حبي المتفرد والوحيد الذي يدق جدران قلبي بقوة المطرقة.

مطرقة النار
سالي

توجهت بموكب مهيب من السيارات والحرس المدججين بالسلاح إلى مدينة البياع حيث بعض المعارف القدامى والأصدقاء الذين تربطني بهم معرفة متينة منذ أن كنت مسؤولة في مقر الحزب هناك.

ونشرت بينهم شائعة، مفادها أن وليد متهم بالتزوير والنصب والاحتيال وعليه أحكام جنائية، فحذرتهم منه، كي ينبذه أهل العروس ويرفضون تزويج ابنتهم له حين يسألون عنه أهل المنطقة، ولكن السهم قد أخطأ الهدف وفتر عن القوس الوتر، وعجل المقدور بما كنت أخافه فخسرت الجولة ومع الأسف تم الزواج.

يمشي الوقت بطيئًا على عكازين بعد أن قضم قطعة من روحي ومضى، وفي كل ليلة أعيشها وهو في أحضان أخرى

أموت وتصطفق مشاعري كموج تلاحقه الريح، أتقرفص أمام مدفأتي اليتيمة وفي رأسي جحافل من النمل تدك حصون قلبي المترع بالضجر.

بعد كل مناورة خاسرة، أعتصر القطرة الأخيرة من الخيبة، وأنصب خيمتي داخل جرحي وأدرك أن عرى روحي تتساقط عروة عروة، ولا عزاء يطبطب على فؤادي ويستر فيض دموعي الحارقة، سوى الثأر ومواجهة الأقدار الهادرة بنفسي، لاسترجاع حبيبي الذي يرتحل بروحي كسندباد يراقص الموج والبحر.

اختل وزن الصبر عندي منذ أن هجرني وليد، ناديته في منافي العشق وأتخمت هاتفه بالشهقات وحشوت بريده الإلكتروني بالعتاب، وركضت خيولي وراء صوته حتى كلت، ولكنه تجاهل كل شيء، كأنني لا شيء.

فطلبت من داليا أن تخبره بأنني أريده في أمر ضروري، لذلك جاد بالوصل مرة ورد على هاتفي، سمعت صوته يقول: ألو، فأصبت بدوار الكلمات وتضاعف نبضي أضعافًا مضاعفة،

وصرت كتربة شققها التيبس ثم رواها غيث موسم غزير، وقلت له بحنجرة مكلومة: بيننا معركة متواصلة، غنائمها وافرة، ولكن نتائجها مجهولة، لذلك عليك قبول الهدنة.

قال جملة باردة مؤثثة: لقد انتهى كل شيء بيننا، وأنا الآن متزوج ولدي زوجة جميلة وأريد تكوين عائلة بهدوء، فأرجوك دعيني ودعي الماضي فقد أصبح الكلام عنه الآن شيئًا سخيفًا.

قلت وقد زفرت أنفاسي رمادًا لا أثر فيه لجمر اللحظة: إلى متى أستعذب الركض في براريك الموحشة؟ أنتظر سنا وجهك يشمس؟ إلى متى ترعى خيالاتي غزلان القلق؟ إلى متى أطارح بالصمت شجوي وتخنق روحي العبرات؟ إلى متى أظل شهيدة كل الحروب أستبكي مواويلي وأنت تعلم أني أستمد الحياة من فيء روحك؟ وتعلم أن الأرواح أيضًا كالمصابيح تنطفئ.

أتوسل إليك يا وليد لا تتركني أهوي دون قرار باردة الضلوع وحيدة، أعزف الحزن على وتر الروح، أجلس أمام مدفأتي وأقرأ رواية ضاع أبطالها بين الهجر والنكران.

لقد سئمت من الحياة وجزعت من فقدك، غيرت فصولي وحاولت تجبير عظامى المكسورة، وظننت أنني انتهيت منك حين تركت قلبي يجف في شمس النسيان، لكن كل شيء يذكرني بك وكل الطرق تؤدي إليك حتى التي سلكتها لنسيانك، حاولت أن أحلق بعيدًا عن رياضك، ولكن الحنين يجذبني إليك ويقتل اعتيادي، ويفلق دمعي ويشب صبابة عليك، وكل ليلة أحشو بك الوسادة لأغفو لكنك تأبى إلا أن تطفئ جمري الوحشي بالجمر.

العشق لئيم، يضرب العقل في مقتل، ويهد كل قناعاتك الرصينة، ويخترق سكونك ويؤرق مضجعك، ويسرق من عينيك المنام، يسلبك الراحة ويهدك قطعة قطعة، ويجبرك على مصاحبة السهاد.

وفي صباح اليوم التالي فوجئت بباب البيت يفتح، نهضت مسرعة وإذا بوليد يدلف إلى المنزل بخطا خرساء، يقرع أقدامه بتناغم مع فرقعة الحطب المشتعل في موقد قلبي، نظرت إليه فوجدته يحملق بعينين تتوقدان شرًّا، ويكز على أسنانه من الغيظ، اختلطت الأمر عليَّ ولم

أستطع التمييز بين الحقيقة والحلم، سايرت تخاريف عقلي وقلت: أهذا أنت حقيقة أم خيالًا.

أدار ظهره وسار قليلًا وقال: تعالي ننهي الموضوع بسرعة.

قلت وبصيرتي مشوشة: أراك شخصًا لا يشبهك.. كيف أصبحت غيرك؟

قال: اسمعيني جيدًا.. أنا لا أخافك ولا أبالي بتهديداتك البتة

قلت وأنا أحاول الثبات على برج متهدهد: إنه الهذيان يا وليد، كيف تهز جدار المستحيل، وتجعلني مشجب الصفعات، وأنت من مد لي حبل عناقه وانتشلني من بئر أحزاني وأعاد للحب خضرته في قلبي، لا أريد أن أبكي أمامك وأجرب الضعف وارتعاش الشفاه وتذوق طعم الدمع المالح وهو يسري بين خلجان خدي.

قال: احذفيني من ذاكرتك، أخرجيني من حياتك.

أدرت وجهي إلى نافذة الغرفة التي لم تفتح بعد، وتوقفت خلف ستارة أتعبها هباب سجائري المحلية، وقلت بشجاعة

لا أعرف من أين حصلت عليها في تلك اللحظة: إلا كرامتي يا وليد، لن أسمح لأحد أن يسحقها، سأدمر حياتك، سأجعلك تندب الأطلال وتبللك الدموع وتتقاذفك الآلام وتضرب الأكف بلحن الندم، حتى تعود لي خاسرًا ترد النبل إلى قوسها والنهر إلى مصبه والشمس إلى مطلعها.

قال مستهزئًا: على رسلك.. سأموت من الرعب

قلت وقد تحجر جفني: لا بل ستموت بيدي، سأجعل هذا المسدس يتقيأ رصاصاته على رأسك، وسأرحل من هذا العالم ملطخة بالدم بسببك.

تركني والحيرة تعربد في رأسي، وتضرب جمجمتي الأخيلة، أدق المسامير على غيمة رحيله، أرغم أطرافي على الصمود وأحث أوصالي على المطاولة بأمل مهزوز يتفلت مني انفلات الماء من بين الأصابع.

دموع التماسيح
سالي

ها أنا ذا وحيدة ككل الذين هزمهم العشق، وتطوعوا للحرب بروح باهتة وفرقهم المدى وأفزعهم رعد الشظايا ثم حملوا على كتف الهزيمة، نبذني وليد ولم يبقَ من ذكراه سوى جو يعبق برائحة السجائر الخانقة وشبورة من الدخان المتصاعد، أضع يدي على زجاج نافذتي وأشعر بيده على الجهة المقابلة، أهرع أمسح عنه الغبار فأجدني مكبلة بالوهم، أتكور كل ليلة في حِجر الحنين، أتخيله معي، أصير ضلعًا، أدخل في صدره وأنام.

تحت هذه الأجَمَة انبثق في ذهني استغلال نفوذي لاستعادة وليد إلى حضن قلبي، ودق أسفينٍ أبديٍّ بينه وبين زوجته، فجلست أنتظر الظرف الملغم بالرصاص يصل إلى بيت وليد.

تلاحقت ساعات ذاك اليوم تترى، والشمس توشك على الغروب، وكل شيء جاهز للهجوم، المال والرجال والأسلحة، رن هاتفي وأُخبرت أن العملية تمت بنجاح وأن وليد وأهله غادروا البيت بعد تلقيه التهديد وتنفيذ الهجوم.

تلقيت اتصالا من داليا فجر اليوم التالي، وقالت: لقد حلت بنا مصيبة كبرى يا سالي، أرجوك ساعديني.

استجمعت قوى نبضي التالف وسط أحاسيس ملتهبة، ومثلت دور المتعاطف وأجبتها بصوت مرتجف: أرعبني صوتك يا داليا ماذا حدث؟

قالت: لقد هاجمتنا عصابة مسلحة وأمطرت بيتنا بالرصاص، هددونا بالموت إن لم نغادر البلاد، فماذا أفعل انصحيني، انت أختي وصديقتي وتهدج صوتها بالبكاء.

قاطعتها قائلة: لا تخافي يا حبيبتي سوف أغلق معك الهاتف لأفهم ماذا حدث.

وعلى الضفة الأخرى للمكالمة شعرت بارتياح، لأني أبكيت هذه اللعينة التي فطرت قلبي ولم تخطبني لأخيها،

عاودت الاتصال بها وفي نبرة صوتي أسى مصطنع، وقلت: سامحيني يا داليا، الأمر جد خطير وفرق الموت لا ترحم.

قالت: ما العمل يا سالي، ماذا نفعل الآن؟

قلت: لا بد أن تتركوا البلاد ولو مؤقتًا، وتبتعدوا ريثما يهدأ المشهد وتتضح الصورة.

قالت: وماذا لو رفضت زوجة وليد السفر؟

قلت وأنا أطرق الحديد الساخن: زوجته بالذات يجب أن لا تسافر معه، حتى لا يعرفوا لكم طريقًا يا داليا، هل تفهمينني؟

قالت داليا: ماذا؟

قلت: اسمعيني جيدًا، لا بد أن يطلقها وليد قبل التوجه للإمارات.

قالت: يا وليتي كيف يحدث هذا، وهو يهيم بها حبًّا.

قلت: أخبريه أن هذا من مصلحة زوجته أصلًا حتى لا ينتقموا من أهلها ويقتلوهم، إنها فرقة موت.. مافيا يا داليا، وليست فرقة فنون شعبية.

قالت: ورهف؟

قلت: من رهف؟

قالت: ابنة وليد ما زالت صغيرة.

قلت: لا بد أن تذهب مع أبيها ولو بالقوة، وإلا سيخطفونها لطلب الفدية.

قالت: كيف؟

قلت: لا تخافي، ثقي بي ودعي الأمر علي، سأرتب كل شيء.

أغلقت الهاتف وشعرت بنسائم الخريف تتسلل لاهثة عبر أوردتي الضيقة، وأنا أتخيل وليد وزوجته في مهب الريح ومناشير القطيعة تنشر حياتهما بلا رحمة.

شفرة
سالي

ها أنا عقدة من ضعف، كتلة من صراخ محبوس، وريثة شرعية لطعنات وليد وأناته التي غرسها في أنحائي، لقد كان محرمًا عليَّ كل هذه السنوات أن أصيح بالآه ولو غسلت جرحي بملح البحر، ولكم تمنيت أن تشق الآه صدري وأزفرها نيرانًا، ليخرج معها وجهه الغافي في أعماق تغص به، وفي ذاكرة تنزف قيحًا على مسلة عشق مستحيل، لا يخضع لقانون موت ولا حياة.

أحاطني الحزن كالأسلاك الشائكة، سنوات أجتر فيها خلف قناع ابتساماتي خيبات يومي ولوعات أمسي وإخفاقات غدي، أمني النفس بشمس العمر التي ستشرق بعد الغروب، فأجبرها على العيش في حال سقيم لا حرث له ولا حصاد.

رشحني الحزب لتولي إدارة البعثات والعلاقات الثقافية بورازة التعليم العالي والبحث العلمي، وتطلب مني هذا المنصب الغوص في العمل ومتابعة برامج المنح الدراسية المخصص لتقديم النفقات الدراسية للطلبة الموفدين إلى الخارج.

وحضر لتهنئتي زملاء سمر في الأكاديمية ولفت نظري أحدهم خلت أني أعرفه منذ زمن بعيد، وكأن أرواحنا التقتا في مكان ما، حائر كحيرتي، لا يدري أين سيقوده الدرب، يبحث عن عينين ضاعتا منه بين أطلال الخواطر، وتاهتا في متاهات معفرة بالألم.

ما قصة مهند؟ سألت سمر

قالت: قصته طويلة، أحب ابنة خالته حب الصبا ولكنها تركته وتزوجت بآخر، لم يدم زواجها طويلًا حتى طلقها وعادت إلى بيت أهلها مسكورة الجناح، فملأ حياتها مهند حين امتلأت بالفراغ والوحشة، وتزوجها.

قلت: كم ولدًا لديه؟

قالت: لم ينجب بعد، فزوجته مريضة، لديها طفلة من طليقها قام بخطفها منها بعمر سنة وتركها تلتقم الجمر على فراقها، فأصبحت آيلة للسقوط بأي لحظة، تتأرجح بفعل الطقس وهبوب الرياح، أحالها ورقة تصفر حينًا وتخضر حينًا وتذوي أحيانًا أخرى، تحقن الصبر في شراييننا على أمل استعادة ابنتها.

عرفت من القصة أنها مرام طليقة وليد، وتأكدت أنها هي ذاتها من محل سكناها، فتململ الصنم بداخلي وتحرك وحرك معه الذكريات الغاضبة ورفرفت بداخلي أجنحة الانتقام، وأحسست أن الفرصة سانحة لأقلب ظهر المجن على من حرمتني حب العمر.

أضحك من كل أقداري، فكلما هممت بتأجيل الجرح زمنًا آخر، لأتصالح مع الحاضر، تحملني مواسم همومي إلى الماضي، وقلبي في كل مرة لا يتعظ، يمارس الانتقام حتى تتقطع شراييننه، يبحث عن المتاعب ولا يتقبل الواقع، قلبي أصم لا يسمع وله وجع لا يتوقف، قلبي أبكم لا ينطق يحب ويتألم بصمت.

مرت السنوات وأنا أضمر الشر لمرام، وأخطط بالورقة والقلم كي أهدم حياتها، أحيك لها الشباك من صوف الوجع، وأعد لها صنارة من لهب، لأنسج لها رداءً بلون الدم.

مرام.. تلك التي التهمت قلبي واغتصبت فرحتي الوحيدة في الحياة، وجعلتني ألوك العمر حزنًا.

مرام... تلك التي لو أفرغت في صدرها كل سموم أسلحتي ما كفاني حتى أسعر فيها حجيمًا يزبد شراره كالبركان.

لقد آن الأوان لكي أكون حجرًا يسد تدفق حياتها، لأقتنصها كأي قناص محترف، فقد أخبرتني سمر أن مهند ومرام سيذهبان إلى شرم الشيخ، وهنا اشتعلت بداخلي فكرة لو نجحت ستقصم ظهرها ولن يستقيم بعدها إلى الأبد، سأخبر داليا أن الوزارة سوف تعقد مؤتمرًا في مصر لمنح المتفوقين من طلبة الصفوف المنتهية منحًا دراسية إلى الخارج، وأقنعها أن ترسل رهف لحضور المؤتمر.

وهناك سوف أسلط أحد معارفي ليتهجم على رهف في مكان تواجد مهند ومرام، ليتم التعارف بينها وبين مهند،

فتنمو علاقة حب تحرق أخضر مرام ويابسها، فلا يبقى لها سوى هجرانه والنأي بابنتها عنه، فيخسرهما مهند، ولعلَّ نار الانتقام تشب في قلب وليد وتوزع الحقد في عروقه، وهو يرى الرجل نفسه الذي فاز بامرأته يراود ابنته عن نفسها، فيغسل رصاصات مسدسه في صدر مهند بالزيت والقسوة، فتقطع أوداج العصافير بشفرة واحد.

كلاكيت آخر مرة
سالي

كل الأوقات تعيدني لصفحتي الأولى، لنقطة البداية، لمقدمتي التي لم أنفلت من قبضتها، للتكرار المبثوث في دواوين حياتي، عتَّقتُ أيامي بخمر انتظاري، وسنواتي ملت من البعد عن وليد، وأضحى قلبي ناعور سقاء أروي ذكراه بماء رقراق، وهو يرويني بدلاء فارغة جافة كروحي، جائعة لرغيف عشق معجون بقطرات نداه، وهو لا يدري حين أغوص شوقًا إليه تنثال الدموع على خدودي دون رجاء.

شيء مخيف

سقطت سنون العمر مني

كأوراق الخريف

وتصدعت أركان روحي

من الرج العنيف

ميلاد وموت وعناق وفراق
وأسفار من الوجع الكثيف
ما بالها الأيام تخنق وحدتي
وجع على أوجاعها تضيف
دقات قلبي تذمرت
وهمتي انحسرت
وحبل آمالي ضعيف
وأمنياتي كلها نثرت
فوق أبهاء الرصيف
بين أزيز الصدر
ووشوشة السمع الرهيف

علمت من أختي سمر أن مهند سوف يسافر إلى مهرجان في تونس، فاستثمرت ذلك مباشرة واتصلت برهف، طلبت منها التوجه إلى تونس لإعداد تقرير عن الحريات في شمال أفريقيا.

لقد أوحيت إلى رهف أن هذه الخطوة هي الوحيدة والكفيلة التي تجعلها تحلق إلى أرض الأحلام وتحصل على

المنحة، وبالفعل كل شيء حدث كما هو مرسوم في الخطة، وبقي أن تتشابك الأغصان ويهيج البحر، وموجة بعد موجة يغرق مهند بالعشق الممنوع.

فهاتفتني داليا وأنا ألتحف المدفأة في ليلة من ليالي البرد القارص، وأخبرتني بأنها في ورطة، وقالت: إن رهف تحب رجلًا متزوجًا، وأنا أريد نصيحتك ماذا أفعل كي أوقفها.

فقلت بخبث: طيب أين المشكلة؟ ألم ترتبطي برجل متزوج؟ فلماذا تحلينه لك يا داليا وتحرمينه على غيرك؟

قالت وقد سرت روح الخوف في لسانها: أحمد؟!!!.. الأمر مختلف، كما أن رهف ما زالت طفلة لا تعرف ما ينفعها.

قلت: أنا من رأيي المتواضع أن تدعي الفتاة تخوض التجربة بنفسها.

قالت وأنا أصغي لدقات قلبها: مستحيل يا سالي أنا لا بد أن أوقف هذا النزق، أنا متعبة للغاية.

قلت: لا لا يا حبيبتي لا ترهقي نفسك، سوف أتصل بها وأحاول ثنيها عن ذلك.

أغلقت الهاتف وبصقت على تلك اللعينة التي تلف الكوكب حقدًا وتهطل سُمًّا، فقلبي مرتهن معها بدينٍ قديمٍ، وثمنٍ لا بد أن تدفعه موتًا وحسرة، ولا بد أن تسدده آهات ودموعًا، ضربت أزرار الهاتف، واتصلت برهف وهي في تونس، وقلت: ها يا حبيبتي الصغيرة كيف حال القلب معك؟

قالت: حان الوقت ليكون حرًّا طليقًا

قلت: اتصلت بي عمتك داليا، وهي لا تتفهم طبيعة العلاقة بينك وبين الرجل الذي تحبين

قالت: لا أستطيع التفاهم مع عمتي فهي دائمًا عصبية

قلت بخبث: معك حق، أنا بصراحة استغربت ازدواجيتها!! فكيف تبيح لنفسها الزواج من رجل متزوج وتمنع غيرها بالقوة؟

ألقيت حطبًا على نارها فقالت: بالعكس سأتمسك به للنهاية وسأتزوجه مهما كانت التضحيات.

قلت: تمسكي بحلمك يا حبيبتي ولا تدعيه يتفلت من يديك، فأغلب الرجال كالسمك لا ينفك يهرب وينزلق من بين الكفوف.

قالت: هو يعشقني حتى الموت

قلت: إذن أكملي حتى النهاية

وبعد عدة أسابيع سقطت الوجوه وصمدت الأقنعة وجرت الرياح بما لا تشتهي سفني، فقد رفضت رهف الزواج من مهند بسبب سطوة عمتها واسترحام أبيها المريض، لذلك نشرت أجنحتها وطارت إلى أمريكا.

أحسست أنني لا أستحق العيش في عالم يكرهني، كغزال بين قطيع وحوش، كحمامة مهيضة الجناح مع حبيب جاحد، وعدوة تخطفه من بين أحضاني، وغريم يمنحها قبلة الحياة، وصديقة أحرقت كبدي وأهدتني للحريق، وأختٍ خائنة غرست السكين في جوفي حتى الغلغلة.

فقدت طعوم الأشياء، وصغر الأمل في عيني حتى بات كالخردلة، وغاب الحنين عن العائلة والأصدقاء والمقربين، فلا أحد يشعر بي وأنا أحترق حتى العطب، ومن أعطيته قلبي شريانًا وأوردة يثوي تحت أنين الموت الآن، وفي كل مرة يصطدم عقلي بفكرة موته يصطخب في أضلعي اللهب، وأعد لدفنه جيوش الرثاء، ويرتل دمعي نشيد الوداع.

وقفت العمر كله شحاذة على باب مناه، أهرق عزيز الدمع وأئن من نواه؟ أعقد الألفة بين الموت والحياة كغصن

دون ظل تستبيحه الريح، أسعى إليه وبي عطش الضرير إلى كأس الماء، أحن إلى سواحل الوهم وأستظل بأشجار الأمنيات؟ أرقب طيفه بين الأغصان العارية.

ولكن إلى متى أظل أحفره سرًّا في قلبي وأهب دقاته إلى المجهول؟ إلى متى أخفق كالطير على شط اللقاء، يتلاعب بي المد والجزر؟ إلى متى أخرط من بكرة الصبر صبرًا لأخيط جزعي غرزة غرزة؟ إلى متى أحتمل هذه الحياة التي تنفث سمها عميقًا في خلاياي، وتمتص سنوات عمري حتى آخر نسغ؟ وبداخلي يمكث فراغٌ لا يملأه غيره، أموت كوردة ذابلة لا تبوح باحتياجها للماء، إما أن تسقى وإما أن تموت بصمت.

إلى متى ألملم نهرًا تبدد وحبًّا تشرد وحبيبًا تمرد ووصلًا تقطعت أوصاله إلى الأبد، لقد انقضى العمر، وأنا أتدحرج من على سلم النهاية، أما آن للرواية أن تطوى حتى وإن لم تكتمل؟ فقد رحلت مذ رحل وهجرتني قوارب الاشتياق ومُحيت من سجل الأمل، فماذا أنتظر بعد؟ لِمَ لا أعلن سخطي على هذا الوضع اللعين، وأعلق مشنقة اللعنة وأنهي المشهد الحزين بجعل رصاصات هذا المسدس تُقبِّل جسدي وتعزف فيه سيمفونية الموت.